

روائع الأفق العربي
(الأعمال الإبداعية)

طه حسين

دعاء الكروان

Looloo

www.dvd4arab.com



اتج هذه القصة أن تبلغ من نفس شاعرنا
العظيم خليل مطران موضع الرضا ، فأعدي
إلى هذه القصيدة الرائعة فضلاً عنه أتقبله
مغفوراً شكوراً . وأكره أن يؤثر به
نفس من دون الذين يحبون الشعر الربيع
بل أكره أن يحملوا التواضع الكاذب على
إعطاء هذه المكرة التي إن صورت شيئاً
فلانما تصور نفساً كريمة وقلباً عطوفاً :

دُعَاءُ هَذَا الْكَرَّانِ الَّذِي

خَلَّدَتْهُ فِي مَسْجِدِ الدَّهْرِ

لَهُ صَدْقَى فِي الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ مِنْ

أَشْيَى مَتَاعِ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ

لَكِنَّهُ مُشْجِرٌ بِزَجِيمِهِ

لَمَّا جَرَى فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ

إِذْ تَسْكُنُ الْيَدَاءُ وَهْنًا فَا

يَنْبُضُ إِلَّا مُهْجُ الْقَفْرِ

والليل في اليه الحيق المدي
يُطبقُ جَنبَهُ على وَزِيرٍ

والطائرُ المرتاعُ في جَوْهٍ
يُنلِرُ بالأساة في دُعْرِ

يُرْنُ إِرْنَانُ سِهَامٍ رَمَتْ
حيثُ رَمَتْ بالشُعْلِ الحَمَرِ

أَسَالَ أَدَمِي خَطْبُ مَطْلُولَةٍ
مَقْتُولَةٍ في زَهْرَةِ العَمَرِ

جَنَى عَلَيْهَا وَاهِمٌ أَنَّهُ
يَنَارُ لِلْمَعْرُوضِ وَالطَّاهِرِ

وَحَامَرْتَنِي حَسْرَةٌ غَامِرَتْ
شُهُودَ ذَاكَ الْمَصْرَعِ التَّكْبَرِ

أَلَيْسَ لِلْأَرْوَاحِ فِي بَيْتِهَا
أَوَاصِرٌ مِنْ حَيْثُ لَا تَدْرِي

جَوْهَرُهَا قَرْدٌ وَإِحْسَامُهَا
مُشْتَرِكٌ فِي النِّعَمِ وَالْقَصْرِ

حَادِثَةٌ فِي رَيْفٍ مَصْرِ جَرَتْ
وَمِثْلُهَا فِي الرَيْفِ كَمْ يَجْرِي

قَصَّتْ عَلَيْنَا قِصَصًا شَائِقًا
فِي كَلِمٍ أَنْتَى مِنَ الْقَطْرِ

مَسْرُودَةٌ مُرَدًّا عَلَى صَقِيرِهِ
أَفْعَلَ فِي النَّفْسِ مِنَ الْحَمْرِ

يَا لَعَنَ الْعَرَبَ الَّتِي كَاشَفَتْ
طَهَهُ بِمَا صَانَتْ مِنَ الرُّ

مِنْ أَيْ رَوْضٍ يُجْتَنِي مِثْلُ مَا
جَنَاهُ مِنْ أَزْهَارِكَ النُّصْرِ

مِنْ أَيْ عَمْرٍِ وَالْمَنَى دُرَّةُ
بُصَادُ مَا صَادَ مِنَ الدُّرِّ

مِنْ أَيْ تَبَرٍّ فِي غَوَالٍ الْحِلْيِ
بُصَاغُ مَا صَاغَ مِنَ التَّبَرِّ

آيَاتُ طَهَ كَزَكَتْ بِالْهَدَى
فِيمَ اسْتَعَارَتْ فَتَنَ السَّحْرِ

أَحْدَثَتْ مَا جَامَتْ بِهِ طُرُقُهُ
بِدِيعَةٍ فِي أَدَبِ الْعَصْرِ

تَجَلَّتْ خِيَالُ الشَّعْرِ فِي صُورَةٍ
أَغَارَتْ الشَّعْرَ مِنَ النَّشْرِ

لم يكن يقدر أنى سألناه قائمة باسمه حين أقبل إلى في ظلمة الليل
بسمي كأنه الحية أو كأنه اللص ، ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين
شخصي مائلا في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح
حتى أخذ شيء من الذعر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض
جعل يأخذ صوته الطبيعي قليلا قليلا : ماذا ! ألا تزالين ساهرة إلى
الآن ؟ أتعلمين متى أنت من الليل ؟ قلت : لقد جاوزت ثلثه وما كان
يتبقى لي أن أنام قبل أن يتام سيدي ، فما يدريني لعله يحتاج إلى شيء .
قال وقد عاد إلى ثباته وهدهده نفسه واسترد صوته شيئا من قبحته المألوفة
ودعا بتم البغيضة : ما رأيت قبلك خادما مثلك تحسن العناية بسيدها
وتسهر منتظرة مقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحبك قائمة كما تعودت
أرى من سبقك في خدمتي ، وكنت أقدر أنى سأجد في إيقاظك بعض
الجهد ، فلست أدري ما بال نوم الخدم بثقل حتى كأنهم أموات .
قلت : قد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت
منذ اصطفت خدمة المترفين الذين لا يحبون إتفاق الليل في دورهم ، فلبأمر
سيدي بما يريد . قال وهو بضحك ضحكا سمجا وقد مد إلى يداي وددت
لو استطعت قطعها ، ولكني تراجعت حتى لا تبغى : فإن سيدك بأمرك
أن تتبعه .

ثم انحدر إلى غرفته ومضيت في نره .

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! ما زلت ساهرة أرقب مقعدك وانتظر نداءك ، وما كان ينبغي لي أن أنام حتى أحس قربك ، وأسمع صوتك ، واستجيب لدعائك . ألم أتعود هذا منذ أكنه من عشرين عاماً !

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! ما أحب صوتك إلى نفسي إذا جئ الليل ، وهذا الكون ، وثامت الحياة ، وانطلقت الأرواح في هذا السكون المظلم ، آمنة لا تخاف ، صامتة لا تسمع !

إن صوتك إذن لأشبه الأشياء بأن يكون صوتاً لروح من هذه الأرواح لبد كرتي روح هذه الأخت التي شهدت مصرعها معي في تلك الليلة المهيبة الرهيبة ، وفي ذلك القضاء العريض الذي لم يكن من سبيل لي أن يسمع الصوت فيه مهما برضع ، ولا أن يجيب الميت فيه لمن استغاث .

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! ادن مني إن كان من أخلاقك الدنو ، وأنس إلى إن كان من خصائص الأتس إلى الناس ، واسمع مني وتحدث إلي ، وهلم تذكر تلك المأساة التي شهدناها معاً ، وعجزنا عن أن ندفعها أو نصرف شرها عن تلك النفس الزكية التي أزهقت ، وعن هذا الدم البريء الذي سفك .

قلم ترد حينئذ على أن بعثنا صيحات ترددت في ذلك القضاء العريض لكنها لم تبلغ أذنًا ولم تصل إلى قلب ، وإنما صعدت إلى السماء على حين هوى ذلك الجسم الخليل المعزق في تلك الحفرة التي أعدت له إعداداً ، ثم هيل التراب وسويت الأرض ، وأنت تدعو ولا من يستجيب ، وأنا استغيث ولا من يغيث ، وامرأة متقدمة في السن قد انتحت ناحية وجلست تذرف دموعها في صمت عميق ، ورجل مضطرب في السن قد قام غير

بعيد يسوى الأرض ، ويصب عليها الماء ، ويردها كما كانت ، ثم يتحى قليلاً ويزيل عن جسمه وثيابه آثار الدم والتراب ، ثم يرفع صوته آمراً أن هكُم فقد آن لنا أن نرتحل .

منذ ذلك الوقت تم العهد بينك وبين أيها الطائر العزيز على أن تذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل حتى تثار هذه الفتاة التي غودرت في هذا القضاء ، ثم تذكر هذه المأساة كلما انتصف الليل بعد أن تطمر بالثر ، ليكون في ذكرنا إياها وفاء هذه النفس التي أزهقت ، ولهذا الدم الذي سفك ، ورضاً عن الانتقام وقد ألم بالآثم المجرم ورد الأمر إلى نصابه ، وأراح هذه النفس التي ما زالت تطلب الرى حتى تطمر بالثر من الذين اعتدوا عليها .

لييك لييك أيها الطائر العزيز ! إنا لنتق كلما انتصف الليل منذ أصوام وأصوام فتدبر بيننا هذا الحديث ، أفندعي أقص أطرافاً منه على الناس لعلهم أن يحملوا فيه عظة تعصم النفوس الزكية من أن تزهق ، والدماء البريئة من أن تراق ؟

لقد بعد صوت الكروان قليلاً قليلاً حتى انقطع ولم يلبقى منه شيء ، وعاد الليل إلى سكونه المادئ الثقيل ، وأطمأن من حول كل شيء ، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد ، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين . . . وأنا آخذ

نفسى بالملوء لألامم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا فى مشقة وهناء . وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حول فى الغرفة فأرى ثراء ويسراً ، وأرى ترفاً وكلفاً بالجمال والفن ، وأنا أمدّ صيى إلى المرأة أمامى وأبنيها فى أدبها الصافي الصقيل حيناً فتعود إلى بصورة إلا تكن رائعة بارعة ، فإنها لا تخلو من رواء ونفصرة وحسن تنسيق . وما لى أسأل عن صورة هذه المرأة الجمادة الهامدة التى لا تحس شيئاً ولا تشعر بشيء . ولا تعرب عن شيء . وإنى لأرى صورتى مرآت ومرآت فى غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التى تحسن الإفصاح عما فى النفوس وهى العيون ! لقد رأيت صورتى اليوم فى غير عين من هذه العيون التى كانت ترمقنى مسرعة ، ثم تعود إلى فتطيل النظر إلى قليلاً ، ثم تعود إلى مرة أخرى فتثبت فى وجهى لا تكاد تنصرف عنه . وكنت كلما رأيت صورتى فى هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآتمة لا أنكر ما أرى ، ولا أكره ما أجد من الشعور ، ولا أردّ نفسى عن هذا الغرور الذى يثيره فى المرأة إعجاب الناس بها ونها لكهم عليها .

ثم أنا أنهض من مجلسى ، وأمشى فى غرفى لحظة غير قصيرة . أذهب فيها وأجىء ، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة ، فأطيل النظر إليه لا معجبة به ولا مكبرة له ، وإنما أسأل نفسى : أنا صاحبة هذا كله ؟ أنا المالكة لهذا كله ؟ أنا صاحبة هذه الصورة التى تردّها إلى المرأة التى كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاي فى بعض مشاوبه عصر اليوم ؟

ثم أنا أفكر غير طويل فإذا أنا أستطيع ، وقد تقدم الليل حتى كاد

يلغ ظننه ، أن أمدّ يدي إلى زرّ كهربائى قريب ، فلا أكاد أمسه حتى بطرق الباب ، ولا أكاد أرفع صوتى بالإذن حتى تدخل على خادم وضيفة ، حست الشكل ، جميلة الزى ، ساهرة مهما يتقدم الليل لأنى ما زلت ساهرة ، ولأنها لا تستطيع أن تأوى إلى مضجعتها حتى آذن لها بالنوم . ثم أنا أمضى إلى هذه النافذة ، فلا أكاد أفتحها حتى تمتلئ نفسى روعةً وجلالاً لهذه الأشجار النائمة ، وهذه الأزهار المتأرجة ، وهذه الأطيوار التى تحلم فى ثيابا النصوص . وكل هذا لى ملك خالص لا يشاركنى فيه أحد ، ولا يزاحمنى عليه أحد ، أستطيع أن أعث به إن شئت ، ومنى شئت ، وكيف شئت ، لا يسألنى أحد عما أفعل !

فإذا اجتمعت فى نفسى صور هذا النعيم كله أحسست راحة وأمناً وثقة ، ثم لا ألبث أن أحس شيئاً من الكبرياء الغريبة ، لأنى لا ألبث أن أرى صورتى منذ أكثر من عشرين عاماً حين كنت صبية بالسة يائسة ، قد شوه البؤس واليأس شكلها وألقيا على وجهها غشاء كثيباً من الدمامة والقيح . لا ألبث أن أجد هذا الحزن اللاذع العميق حين أذكر هذه المأساة التى كنت أتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز ، وإلى كان يتحدث بها منذ حين إلى هذا الطائر العزيز .

إن فى أحداث الحياة وخطوبها لعظات وعبراً ! إنى لأتحدث الآن إلى نفسى حديثاً ما كان يمكن ولا يتنظر أن تتحدث به إلى نفسها تلك الفتاة التى كان الناس يسمونها آمنة ، والتى تسمى الآن سعاد لأنه اسم جميل يلائم المألوف من حسن الاختيار والتظرف فى الأسماء .

لقد كانت آمنة تلك فتاة بدوية . انحدرت بها وبأختها امرأة من

أهل البادية ، أو من أهل هذا الريف المصرى الذى يشبه البادية ، لأنه
منبت فى أطراف الأرض الخصبة مما يلي الصحراء الغربية أو مما يلي هذه
الهضبات التى يسميها أهل مصر الوسطى بالجبل الغربى .

كانت زهرة أم آمنه وأختها هنادى امرأة بدوية ريفية ، تقيم فى قرية
من هذه القرى المعلقة بهذه الهضاب التى لا يستقر أهلها فيها إلا ربما
يزيلهم عنها فوج من أفواج الأعراب الذين يقبلون من الصحراء ليتعلموا
الاستقرار فى الأرض والحياة فى أطراف الريف ، ثم يدفعهم فوج آخر
فإذا هم يعضون أمامهم مضيقاً بطيئاً ، يستقلون فى أناء ومهل من مكان إلى
إلى مكان ، وهم يتقدمون نحو الأرض المنخفضة دائماً حتى يبلغوا حدود
البادية أو حدود هذا الريف المتبدى ، وإذا هم على شاطئ القناة التى
يسمونها البحر ويرسمون أن يوسف هو الذى احتضرها فى الزمن القديم . فإذا
أتبع لهم أن يعبروا البحر ، فقليل منهم يحفظ بيداوته ، وأكثرهم يقضى فى
طبقات الزراع ويضيع فى عداد الفلاحين .

كانت زهرة أم هاتين العناتين تعيش مع زوجها الأعرابي وابنتها فى
قرية من هذه القرى ، قد اتخذت اسمها فى أكبر الظن من بطن من
بطون الأعراب أو قبيلة من قبائلهم ، فقد كانت تسمى « بنى وركان »
وكان أهل القرية ومن حولها يميلون الألف قليلاً ويذهبون بها نحو الباء ،
فما أسرع ما أصبح سبة وعاراً يعاب به أهل القرية ، وكيف لا وقد أصبح
اسمها « بين الوركين » وما أسرع ما أصبح أهل القرية يستحبون من اسم
قريتهم ويكرهون الانتساب إليها ، ولا سيما حين كانت تدفعهم حاجة
البيع والشراء إلى أن يهبطوا المدن . فقد كان اسم قريتهم لا يذكر إلا

أضحك الناس وأجرى على أنسهم مزاحاً كثيراً قليلاً : « تحفظاً لنفس
أبدوى الذى لم يتعود دعابة القرويين وأهل الحضر .

كانت زهرة تعيش مع زوجها وابنتها عيشة متواضعة هادئة ، فيها
رخاء معتدل ، وفيها عزة بهذه الأسرة الضخمة ذات العدد الكثير التى
كانت أمنا تسب إليها . ولكن أباناً لم يكن صاحب حشمة ووقار وسيرة
حسنة إنما كان زير نساء يحب الدعابة والمجون ، ولا يتحرج مما يتخرج
منه الرجل المضحك . وكانت له فى القرية وفى القرى المجاورة خطوب كانت
تخيف منه وتخيف عليه .

وكانت أمنا أشقى الناس بهذه الخطوب ، تتأذى بها فى ذات نفسها
- فكم حرقها الفيرة حين كان زوجها يغيب عنها اليوم الكامل أو الليلة
الكاملة - وتشفق منها على زوجها هذا الماجن ، فقد كانت تنجبه على
مجهونه وفجوره ، وكانت تعلم أنه يهين نفسه عداوات خطيرة فى كل مكان
بالخاسخ فى المجون والفجور ، وتغاف منها على حياة ابنتها ومستقبلها
وآمالها فى العيش الهنىء .

ولما لى ما هى فيه من غيرة وإشفاق وفرع ذات ليلة ، إذ جاءها
البأ بأن زوجها قد صرع . ثم بسنين الأمر قليلاً قليلاً ، فإذا الرجل قد
ذهب ضحية لشهوة من شهوات الآفة ، فليس له ثأر يطالب به ، وليس
من سبيل إلى استعلاء السلطان على قاتليه ، وإنما هو العار كل العار قد
ألم بهذه المرأة البائسة وابنتها التعبتين ، وإذا الأسرة كلها تضيق بهؤلاء
النساء ، تكثر مكاثرهن منها ، وتغيب عن الأرض ، وتزودهن بقليل من
المال وكثير من الرحمة ، وتكرههن على عبور البحر والاندفاع فى أرض

الريف يلتصق بحياتها فيها بائسات شقيات ، ليس هن سند يعتمد عليه ، ولا ركن يأوئ إليه ، وإنما هي امرأة وحيدة لها حظ من جمال يطعم فيها الناس ويغري بها أصحاب المحبون ، وصيبتان بائستان لا تكادان تحسان شيئاً . والمحطوب تنتقل بين من قرية إلى قرية ، ومن ضيعة إلى ضيعة ، يلقي بعض الذين هنا ، ويلقي بعض الشدة هناك ، ولا تستقر بين الأرض في أى حال ، حتى ينشأ إلى هذه المدينة الواسعة ذات الأطراف البعيدة والسكان الكثيرين ، والتي تشقها الطريق الحديدية نصفين ، ويمضي فيها هذا الشيء المروع الخفيف الغريب الذي يبعث في الجو شراً وناراً ، وصوتاً ضخماً ، وصغيراً عالياً نحيفاً ، والذي يسمونه القطار ، الذي يركبه الناس يستعينون به على أسفارهم ، كما يستعين أهل البادية والريف بالإبل حيناً ، وبالحمير حيناً آخر ، وبالأقلام في أكثر الأحيان .

هنالك في طرف من أطراف هذه المدينة ، استقرت هذه المرأة مع الصبيين . لجأت إلى شيخ البلدة أو إلى شيخ العزبة فأواها يوماً ، ثم ابنتى لها ولايتيها حجرة ضيقة حقيرة فلدرة قد أقيمت من الطين ، فأسكنها فيها على أن تدفع أجراها عشرة قروش كلما بدا الهلال . ثم قال لها شيخ العزبة : ما أكثر العمل هنا ! فالتفت حياتك وحياة ابنتيك في بيوت هؤلاء المترفين الذين لا يعملون في الزرع والحراث ، وإنما يعملون في خدمة الحكومة ، منهم من يخدم في معامل السكر ، ومنهم من يخدم في المركز ، ومنهم من يخدم في المحكمة الأهلية أو الشرعية ، ومنهم مهنتس الري ، ومنهم مهنتس الطرق ، ثم عند هؤلاء التجار الذين لا يتاجرون فيما تخرج الأرض من الحب ، فهؤلاء فلاحون أو كالفلاحين ، وإنما يتاجرون ، في هذه الأمتعة

والعروض التي لا تأتي من الريف ولا تصنع في المدينة ، وإنما تأتي من مصر ، هناك حيث الناس لا ينطقون كما نطق ولا يعيشون كما نعيش . عند هؤلاء التجار الذين يبيعون الأقمشة والأحذية والأثاث ، يجلبونها من مصر ويبيعونها في المدينة وفي القرى ، ويربحون منها الأموال الضخمة ، ويعيشون في بيوتهم عيشة السادة والأمراء : لا يأكلون على الأرض وإنما يأكلون على الموائد . لا يأكلون الليرة ، وإنما يأكلون خبز الحنطة . لا يأكلون في أطباق النحاس . وإنما يأكلون في أطباق من الخزف . لا يسمحون لنسائهم أن يخرجن مثيلات ، وإنما يخرجن ملففات في هذه الثياب بتخذلها من الحرير ، وعلى وجوههن هذه البراقع الصفاف ، وعلى أنوفهن هذه القصبات من الذهب الخالص أو من القصبة المذهبة .

عند هؤلاء الموظفين ، وعند هؤلاء التجار تشتد الحاجة إلى الخدم ، والحياة في بيوتهم لينة فاعمة ، فالتفتي لنفسك ولا بتيتك بعض العمل في بعض هذه البيوت . قال ذلك شيخ العزبة ، ثم سمي لها أشخاصاً ووصف لها بيوتاً ووعداها بالمعونة . وانقضت أيام قليلة ولكنها ثقيلة ، كانت أمنا تدور فيها بنفسها وبنا على البيوت تعرض نفسها ، وتعرضنا للخدمة ، كما تعرض الإماء على السادة . ولكن هذه الأيام لم تتصل ، وما أسرع ما استقرت كل واحدة منا في بيت تعمل فيه بالهزار ، وتنام فيه الليل ، ونلتقي آخر الأسبوع ، فنقض ليلة سعيدة رضية في حجرتنا تلك القلعة الحقيمة ، قد حملت كل منا ما أتبع لها حمله من الطعام ، فنجتمع إلى طعامنا ، ونحدث عن أهلنا وقريتنا ، ثم عن سادتنا وسيداتنا ، حتى إذا تقدم الليل أغرقنا في نوم هادئ لذيذ ، فإذا كان الصباح تفرقنا إلى حيث نعمل في بيوت التجار والموظفين .

وبيني من اختلاف الزى ، وأختلس نظرات إليها ، ثم أختلس نظرات إلى المرأة ، فلا أكاد أحس بينها وبينى فرقا ولا اختلافاً ، لولا أنها كانت تتكلم لغة حلوة عذبة رقيقة هي لغة مصر ، وكنت أتكلم لغة فجة خشنة غليظة هي لغة أهل الريف من « بني وركان » . وكنت أقلد في نفسي لغة خديجة فأحسها وأجيدها ، ولكنى حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد ، فردعت عن ذلك ردعاً عنيفاً . ثم حاولت غير مرة أن أجهر بهذا التقليد حين كنت ألى أمى وأختى فكانتا تضحكان منى ضحكاً يخزيني ويردني إلى لغة الريف .

وأنتقلت مع خديجة عاماً وعاماً لم ألتق فيهما بأشك فيهما عناء ، وإنما عرفت فيهما الرفق والنعيم ، وتعلمت فيهما غير قليل مما يعرفه الأغنياء ، وبعد فيهما الأمد بعداً شديداً بيني وبين أمى التي كانت تعمل في بيت موظف من موظفي الدائرة السنية ، معتدل الحال متوسط العيش ، ولكنه أميل إلى حياة الريف ، وأحرص على تقاليد الفلاحين . وبعد فيهما الأمد بيني وبين أختى التي كانت تعمل في بيت مهندس الزى ، ذلك الشاب الرشيق الأنيق ذو الوجه الوسيم . ذلك الشاب الذي كان يعيش وحيداً في دار واسعة ، تحيط بها حديقة جميلة نظرة . ولا يعيش معه فيها إلا خادم رقيق ، يحرس الدار ويعنى بالحديقة ، وإلا أختى تنظف الدار وتعنى بمتاع الشاب ، وكان الطعام يأتيه غزيراً موفوراً من مطعم المدينة ، فيصيب منه القليل ، ويترك أكثره لخادميه .

وكنت أرى أختى تشب بسرعة ، وبستدير جسمها استدارة حسنة ، وتظهر عليها آثار النعمة وآيات من جمال . ولكنها ظلت كما أقبلت من

وكنت أحسن الثلاث حظاً وأيمن مطالعاً ، فقد قلرت لي أن أخدم في بيت مأمور المركز ، وكانت خدمتي غريبة أول الأمر ثقيلة على نفسي ، ولكنى لم ألبث أن أحييتها ووجدت فيها لذة ومتاعاً . كلفت أن أصحب صبيه من بنات المأمور كانت تقاربني في السن ، ولعلها كانت أكبر منى قليلاً .

كنت أرافقها في اللعب على ألا ألعب معها ، وأرافقها إلى الكتاب على ألا أنعلم معها ، وأرافقها حين يأتي المعلم ليلقي عليها الدرس قبل الغروب على ألا أتلقى الدرس معها .

كنت لها خادماً أخطئها من بعيد ، وأجيبها إلى ما تريد ، ولا أشاركها في شيء مما تعمل . ولكن « خديجة » كانت حلوة النفس ، رضية الخلق ، مشرقة الوجه دائماً ، مبسمة الثغر دائماً ، وديعة النفس ، رقيقة الخاشية ، فلم يطل ما كان بينها وبينى من البعد ، وإنما أشركتني في لعبها ، واختصتني بأحاديثها وآثرتني بأسرارها ، ولم تبخل عليّ حتى ببعض ما كانت تمنحها أمها من الحلوى ، أو من النقود لتشتري به الحلوى .

وما هي إلا أن تزول بيتا الكلفة وتصبح رفيقتين صديقتين . وسيدة البيت تذكر ذلك أول الأمر ، ولكنها تدعن له بعد حين ، وإذا أنا أختلف مع الصبية إلى الكتاب فأنعلم كما تتعلم ، وأتلقى مع الصبية درس المعلم فأستجيد كما تستجيد ، وإذا ثياب الصبية تخلع عليّ فيقرب ما بينها

وبفها المتبلى ، ريفية بدوية ، لا تقرأ ولا تكتب كما كنت أقرأ وأكتب .
ولا تحسن من أمور الترف شيئاً كما كنت أحسن منها أشياء .

وفي ذات يوم التقينا آخر النهار في حجرتنا تلك الحظيرة القذرة ،
وكنيت قد أخذت أكره هذا اللقاء ، وأضيق بهذه الحجرة ، وأود لو
أعفيت من هذا الاختلاف إليها كل أسبوع ، ولو استطعت أن ألقى أختي
وأختي من حين إلى حين حيث كانتا تعملان . ولكن أمنا كانت صارمة
حازمة ملحة في الصرامة والحزم ، لا تغير من عادتها شيئاً ، فكنا نلتقي
آخر الأسبوع دائماً ، وكانتا تضحكان وتتمنان بهذا اللقاء ، وكنيت
أتكلف معهما الضحك وأتكلف معهما النعم .

فلما كان ذلك اليوم والتقينا مع المساء ، لم أر بشراً ولا إنساناً ، ولم أر
بهجة ولا اغتباطاً ، وإنما أحست صمتاً عميقاً مريباً ، ورأيت وجهين
كثيرين مظلمين ، ونجلى إلى أنى أرى دموعاً تضطرب في عيني أمنا
ولا تستطيع أن تتحدث . وهمت أن أسأل عما أرى ، فأعرضت أختي عني
إعراضاً ، وأشارت إلى أن لا تسأل .

وقضينا وقتاً طويلاً ثقيلًا في هذا المص المص الذي لم أكن أفهمه
ولا أتبين له مصلراً .

ثم انقطع هذا الصمت فجأةً بجملة واحدة لم أسمع بعدها شيئاً ، ولم
أصنع بعدها شيئاً حتى كان الصباح ، صلت هذه الجملة عن أمنا
فوقعت في قلبي موقع الصاعقة ، ولقيتها أختي بوجوم قريب ، رفعت
عينيها إلى السماء ، ثم مضت فيما كانت فيه من صمت وحزن وإعراض .

قالت أمنا : إذا كان الغد فسرحل عن المدينة المشنومة !

لقد هممت حين سمعت هذه الجملة أن أنكر ، وأن أمتنع ، وأن
أناقش وأجادل ، ولكن أمنا قالت هذه الجملة بصوت حزين بعيد عظم ،
فلم أستطع أن أقول شيئاً ولا أن أظهر شيئاً إلا الطاعة والإذعان .
وذكرت ما ألم بها من البؤس طول حياتها مع ذلك الزوج الماجن
الفاجر . ذكرت ما حرق فؤادها من الغيرة ، وما آذى نفسها من الذل ،
وما روع قلبها من الخوف .

ثم ذكرت ذلك الخطب الذي ألم بها فهدتها هدأ حين جاءها التبا بأن
زوجها قد صرح ، وبأنه قد صرع فيها لا يشرف به صريع .
ثم ذكرت هذه الآلام التي لا حد لها ، والتي غمرتها كما يضر الماء
الغريق ، حين أنكرتها الأسرة إنكاراً ، وحين أخرجتها من القرية ثم نقها
مع ابنتها من الأرض .

ذكرت هذا فلم أستطع أن أنكر ولا أن أجادل ، ولم أزد على أن
أظهرت الطاعة والإذعان . والله يعلم أي ليلة قضيت ساهرة حائرة نائرة ،
لا أطمئن إلى شيء ولا أسكن إلى رأى . حتى إذا كان الصباح نهضت
أمنا فأمرت أن نستعد للرحيل . قلت : أفلا نؤذن سادتنا بهذا الرحيل ؟
قالت في صوت هادئ حزين : إن كان يؤذيك فراقهم فأقيم فسرحل
نحن . قلت بأكية : إن فراقهم ليؤذيني لكنني لن أستطيع أن أقيم ، وإنما
هبطت معكما هذه الأرض ، وقد كنت أحب أن أرى خديجة قبل الرحيل .
قالت : فإنك إن رأيتها لم تعودى إلينا ، أليس أبوها مأمور المراكز ؟
أفمن تعلقت بك وكرهت فراقك يحل بينك وبين الرحيل ؟ قلت : إذن فسرحل .
وما هي إلا ساعات حتى كانت أقدامنا قد تجاوزت بنا المدينة ،

وانضلت بنا من قرية إلى قرية نحو العرب . حتى إذا منع ما الإعياء أقما
حيث كنا فتريح وننتظر الصباح .

٤

وسمى إلى صوتك أنها انصائر العرب . وأن تسبح في يوم غير ميمو .
وأوت من الأحلام صورا فريده ما يوفيه تمثل في حديده وهي تلعب وسخون
إلى أن أشاء كذا في اللام . وتمثل في سيدة الست وهي بأمر وسهى . وتضعد
وتبسط . وتذهب في مذهب منها وسهى . وتمثل المأمور وقد أقبل مع
الظهر فاضطرب لاملعه الست . ثم عاد إلى صوته يوشك أن يكون السكيد .
ثم فرغ أهل الست كلهم هذا الرجل يعود به وتوهمون على حلمه .
كانهم لم يخلقوا إلا له . ولم يوفوا إلا عليه .

وتمثل في أمورا كثيرا كما كتب أراه في ذلك العهد العهد القريب
ولكن صوت انصائر العرب يلعب ويخرج من هذا اليوم الخمر إلى بعضه
مؤلة لا أكاد أشعر بها حتى أحس عبط الصبح وحشوه الصراش . ومن
يضع هذا الدماء يحس من الصبح قد سقط على الأرض العظيمة سقا .
من ذلك الصراش التي الموطأ الذي كان على لى . بعد من مذهب حده
في تلك القرية الحميلة المترقة من بيت المأمور .

لم أكاد أحس حشوة هذا اليوم . وعظ هذه الأرض . حتى إذا
أمام عده عبيد لعمله على تسبح من مشوخ الدار . لا يسر من
وإذا غطت السماء . وكاد يدر صوته . ولا هذا السعد .

كان يفرق فيها من صوته القصر . وقد تقدم به الشهر غير قليل .
نعم ! وقد كرت كيف انتهيا إلى هذه القرية بمجهودات مكثودات آخر
الهر . فجلس إلى شجرات من التوت ساعة وبعض ساعة تسريح .
لا تكاد واحدة منا تتحدث إلى صاحبتها شئ . حتى إذا طال علينا
الاصم . وثفت على الراحة . وثمل عيب التمكر . فاب أمما .
من أظن بنا . طبع أن نبقى الذين جالسنا إلى هذا الشجر . وه . أرى أما
سعيد . أو . أحد من يذونا أو يضيقنا في هذه القرية التي لا نعرف . من
أهلها أحدا ولا يعرفنا من أهلها أحد إلا العمدة . فيجب أن يكون سه
منوحا لكن عريب طارق ليل أو نهار . ثم هضت متناقلة وهضنا معها .
ومضت متناقلة ومضينا معها . حتى انتهت إلى دار العمدة . لم تسأل عنها
ولم يسأل عنها . وإنما مضت إلها كأمما كانت تعرفها من قبل . هالك
رأب جماعة من الناس قد جلسوا أمام الدار على مصطبة عظيمة . ونوصفهم
عن شيخ لا تكاد العين تقع عليه حتى تثق النفس بأنه عمدة القرية . ولما
سعد فجلس اليوم ولخطنا أنصارهم . فقلت أمما في الشيخ الوفور وقالت
في صوت هادئ مترن . عربيات قد طرقن القرية في هذه الساعة المتأخرة
من النهار فأولنا يا عمدة حتى يسير الصبح . قال الرجل على الرحب
والسعة . ثم دعا فأقبل إليه علام من داخل الدار . قال قد هؤلاء النسوة
إلى دار الضيافة وممر يكرام مشاهرين .

يعني العلام ونحن تسعة حتى انتهى بنا إلى دار الضيافة . فورا بنا
موضوع قد اسط أمامه بناء عظيم . فأدبنا إلى بعض حجراء وجل لنا
أقمن هنا حتى يأتيكن الطعام .

وما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى وصلنا من الدار من أضياف

الليل " وما ا سبعين من السماء " قال وقد هوت إلى الأرض كأنها السماء
التيهم ودها مصطرب تمرف ، سرق له على كنها ذكرته لا أسطر شتا
ولا أبقى شتا ...

ثم عادت الرعدة السريعة فهرت جسمها هراً ، ثم انهمرت دموعها
انهاراً ، ثم حس صوتها وإذا هي مصطرب اصطراباً عيباً ، وسعج دمعاً
عريراً ، بل أنشأ عصفه مضطربة ، وأنا أحتو إلى حاسها وأسمها إلى
وأفعلها ، رأ أول ان أرد إليها غلوة والأمر وسكون النفس ما وسعي دنت ،
حتى إذا وصل وقت عمر قصر صكر جسمها بعد اضطراب ، وانطقت أمها
بعد احسان بعد دموعها سمر ، وأوب إلى ذراعي كأنها النقص
قد استسلم أمه الرعوم ، وأشار رأسها إلى كني ، ودهت كذلك
لحظة ، أدت إلى أنسى على ، لا أنها أحتت هذه السموة
هذا ثاب ، بها نفسها ورجعها شاة ، وسر حركت كانت حين بعد
أن سكر دمعها ، كأنها أعجب ، حاد من ، وأما و سر
كانت تده إلى فلا تحده ولا دلمر به ، ثم سمعها تقول تده
بعد لقد ، أحب ان أكون هذا المكان من أم لا من أم ، دحب
الصبرة ، فإن لم تحلق لتللي أحلك ودحب مثل هذا العطف ،

بالأ من ليل مظلم عريض اضطرب فيه هذه الأصوات المشبه بحر
التي تضي ، وسط عليه هذا السكون الخفيف ضلالاً لا حد له ، وسعد
فيه من حس إلى حين صوت هذا الطائر العرير كأنه مهم ، تضي ، تنطق
في بحر من الظلمات !

كل من هادئ مظلم من حولنا حتى نفس هذه الغمائم التي

كانت تاتره منذ لحظة فقد طمأنت وسكت ، وانتهت إلى حال تشبه
لوم ، وبين لأحد نفسي باعلوه وكرهها على لأطمئنان ، وألرم جسمي
السكون في هذا الوضع الذي هو عليه بيني هذا الرأس للناس المنزوي
متربحاً إلى هذه الكنف الصغيرة الحنون .

وأكن الصبر ترفع رأسها وتنوي حاسة ، ثم تسقط ذراعها فتظوق بها
على ، جسمي إليها ، ثم تقبلي ، ثم تقول إريك أن فعل ما فعلت أو
أحد مني قد جددت أو مدعني إلى مثل ما أددت إليه ، إريك أن فعل
بري فعلت ؟ مثل ما بريني في الآن من الخرج وخرج ، من الأس حتى
من راحة الله ، من القوط حتى من روح الله الذي لا يسقط منه إلا
الكاغرون .

قلت : وما فعلت إذن ؟ وما هذا لشر الذي أددت إليه ؟ وما هذا
بأس الذي تعرفين فيه ؟ وما هذا هم الثقيل الذي صب عينا حساً ولم
بحر سطره ولا يتوج له معلماً ؟ قالت وهي تبكي : سب أدري أأحبتك
سبك ثم أكرمت إياه ، من لأعدني على سبك أن تحلفت بإيت ، وإلى
لأعرضك لكل ما أنا فيه إن كتمتك الحديث .

قلت : فإن صمتك لن يعني الآن شيئاً ، فقد عرفت أن هذا ثقيل
لدي ، وإن جرباً محضاً عرق دنت وقلت أمناً ، وإن بأماً مهدداً قد استأثر
بمنه ستراً ، وما أن يمتدحه عن سوار وسحت وأحسك حتى أعلم
بهم هذا ، وإلى حمده ، إريك أن أخرج من ذلك بعد من الناعم
لعمد ، في كتب اسمع به دون أن علم لاد أخرج منه برعاً ، محذني
حلمتك ، فن يدري لعل فيه لي عطف ولك عزاء .

وارتفع الضحى من الغد فإذا ضوءه المتلطف يعمر فتاتين معتقتين قد
أغرقتا في نوم عميق ، لا يوقظهما منه حر الشمس المحرقة ، ولا مس
الأرض الغليظة ، ولا اضطراب اللواجن من حولها وهن يزدهن على ما يسر
لهن من حب ، ويختصمن فيما يُصبّ لهن في الصحاف من ماء ، ويحفقن
بأجنحتهن في الهواء مقبلات مديرات ، واقعات طائرات ، يتادين ويناجين
ويناعين ، قد ملأهن إشراق الصبح مرحاً ، فلأن الحو حياة ونشاطاً وحياً
وكان هذا كله كان يدعوني دعاءً ملحاً من أعماق النوم الذي كنت
مفرقة فيه ، ويدنيني قليلاً قليلاً من اليقظة ، وإذا أنا أتلت الحياة دون
أن أتمثل الحياة ، وأستقبل النشاط دون أن أشعر بالنشاط ، ثم أحس
كأن شيئاً خفياً وثيقاً قد مسّ كفى مساً يسيراً فأنشيت ، ولا أكاد أفصح
عني وأتي بعض الحركة حتى أرى حمامة مذعورة قد ارتفعت عبر مسره
في الارتفاع ، ولم تكذ تطير حتى وقعت في رشاقة وظرف غير بعيد ،
فأستوى جالسةً وأتت نظرة إلى אחي وقد تاب إلى حديثنا كله مرة واحدة
فلأ قلبي إشفافاً وحاً وحزناً . وتقع عيني عليها وقد استراح جسمها المتعب ،
واستقر قلبها المضطرب ، وهذأت نفسها الطائرة ، ودادت الراحة عن وجهها
ذلك النشاء المظلم الكئيب ، فلبعت نضرتة حلوة مشرقة شائقة كأها نصره
الزهر وقد تمتع لضوء الصبح وقطر الندى ، وإذا في هذا الوجه الهادئ
النضر جمالاً للمين ، وحنة للعقل ، وسعة للقلب ، وإذا أنا أنظر إليه فلا
أكاد أحول عني عنه ، مستريحةً "معجبة" مكورة ، ولكي أسمع من ورائي

صوتاً خافتاً يملؤه الحنان والحزن ويقول كأنه يتحدث إلى : انظري . . .
انظري . . . وأطيلي النظر ! أأنت تربيها حناء رائحة الحسن ؟

فألتفت وإذا أمّتنا جالسة تنظر إلى الوجه الذي أنظر إليه ، وما أشك
في أن معها كانت تستعرض خواطر كالتى تحذف على نفسي ، وإن أن
قلبي كان يتأثر بمواطن كتلك التى كانت نملأ قلبي ، فأسألها : ما
حلوسك ها في هذه الشمس المحرقة ؟ فتجيب . لقد كنت أملاً صبي
عمطركا الحميل . . . ثم تنهض موليةً في شيء من الإسراع وهي تعالّب
شحتي يريد أن يصغر ، وتحرص هي على أن يظل دفيناً .

وأقيم أنا في مكاني ذاهلةً أو كالداهلة ، أنظر إلى אחي الذى لم
تستيقظ بعد ، وإلى أمي التى تسرع مولية تريد أن تهيّط أسفل الدار ،
وأفكر في هذه الفتاة اليائسة وفي هذه المرأة الدائسة ، وأسأل نفسي : أيهما
أحق بالمعطف وأحدر بالرثاء ؟ وأسأل نفسي : أيهما أحق مني بالمعونة والنصر
والتعزية والتسليّة ؟ فكنتاهما في حاجة إلى العون ، وكنتاهما في حاجة
إلى العزاء

هذه الفتاة الربيّة لم تعرف نؤس اسمس قبل الآن ، وهي تستقبل
النقاء لأن مطلباً قائماً ثقيلاً ملحاً . لم تدعه ولم تسع إليه ، وإنما
أكهرت عليه إكراهاً وأعريت به إعراء . ثم دُفعت إليه دعماً ، وهي الآن
عربى مشرفة على الموت ، تريد أن تقاوم ونجاهد الموج ما وسعها الجهاد
لا تجد ما تعتمد عليه أو تتعلق به .

ولها لى ذلك إذ ساق القدر إليها من أختها الصغيرة "نميمة" تستطيع
أن تمسك بها وتشتق فصلاً من أمل ، وحظاً من رجاء .

وهذه المرأة التي لم تسمع شجيرة بعد ولكن قد فرصت على سبب
حياة الشيوخ حرمان متصلاً، وشرف على كل ما في عيون من هذه
والفرص من كل ما في هذه من مخرج وكيفية ما يقع في هذه
من موت ونظر متصلاً إلى هذا الموضع شرف من هذه
وتعتمد الآن وتبصر هذه هذه في أن تعبر في هذه
تحت، فلا سمها تحت، ولا يبق من تحت لا حياء ولا غير
وهذه هي دلت عرونة لأسمها من هذه معربة من هذه
وردا هذه من هذه عن حبب حبيب من كل حال حر لا فهو
أمرأ من تحت، خصوصاً في تحت في حياء ناسه، فهي تنظر ورعها فلا
تري إلا قسمة، ونظر أمها فلا تري إلا صفة، ونظر عن تحت شيء،
فلا تجد عوباً ولا نصيراً.

لقد أخرجها لأسرة وجعلها لأهل ونسباً عرونة، وأصبح، محباً
تعود أسير ناسه، ورذا هي تنكب في إحداهما لأمر لا رغبة وقد،
لم يكن ينظره كسائر ناسه، وكنتاهما شقية، وكنت هر حليته أن من
من الأخرى ما تحتاج إليه في هذا كله ولكن هذه ناسه
وانكارة السخة قد باعدت بينهما ولأم بحقيقة على أسها من هذه
أمرها، لا ينقص بينهما حديث ولا تثبت عن إحداهما في عن الآخر،
لما تتألمان بالإشارة أو الجمجمة، وقد نعت أعيهما في أسرع لإصر
إلى رأسهما، ثم ما أسرع ما تدعو حاجة مريضة متحفة إحداهما إلى
تولي مدبرة بأن عن صاحبها فلا يكون بينهما نظر ولا حديث

هل أستطيع أن أرد ما بينهما إلى طبيعة الصلة بين الأم المائنة

ولأن عرونة؟ بل هل أستطيع أن نعيد لأمر بي شيء مما كان
عنه قبل هذه نكارة من هذه المودة السنية التي لا تكف فيها ولا تصح
ولا رياء؟ بل هل أستطيع قبل كل شيء أن أعلم أين نحن وإلى أين
نمضي، وماذا تريد ما أمنا هذه التي تأمر ونهي في هذه حارمة صارمة
وإعلاء معصية لا يقبل حواراً ولا جدالاً؟ ذلك أحذر أن نذكر فيه،
وآخرى أن أسمى إليه فلا نسمع أي إدد ولا ننقصها، ولا سألها في
نفسه ومودة ورق حتى أعلم علمها، ثم أنظر بعد ذلك فيما آتني، أو فيما
يمكن أن تأتي من الأمر.

كل هذه المعاني تصطرب في نفسي، وعسى لا يكون عارق هذه
الوجه هادئ لدى يدل هؤلاء على أن أحتي ما ركب في الأعناق
من هذه في كتب فيها مدح حب، لم سمها صوة الشمس وحرها، ولم
دها من الأرض وعظها ولم فصل إليها اضطرب الموحى وما علا
به الخوف من نشاط وصرح وصياح.

فأهبط متشاققة مترففة حتى أخط هذه لدار النفس أت وقد كان
أسر ناسه إليها فقد عيرت غير بعيد من لدم وحدت، محبة
نعت في الأرض بأصابعها عناً بدت على شيء من ناسه، كأنما
تتربص بي من تحت أو تنع خاطراً بعيداً، حتى إذا
رأسها مدني وبأسها مدعه ما هذه اللعبة التي نعت في ناسه
لأكم من تحت في تحت؟ هو مثل هذه اللعبة لا يستمر في التردد
بها لاعة واحدة...

فقد وقد رفعت إلى رأياً حراً أرسى العبد باني؟ فلب
فما عسى أن يفعل هذا الرب الذي يذهب فيه أصابعك وحر؟
ثم أهبط فلم تمتع عني، ومضيت بها إلى ناسه من العناء

لا بك في صطراب الأضياف ، ونصرت إليها فإذا هي تنقاد إلى مستسلمة . وإذا حرها لعنبت وجانها تقوى قد فاصا على وجهها الشاحب فألقيا عليه مثل وداعة الأطفال .

هناك أحسست من نصبي قوة . وشعرت كأن أبا الأم ، رهرة ، وكأنها هي الفتاة ، آمنة ، فالتذت صوتها وطحنها وألقبت عليها في غير تكلف هذه الأسئلة : ماذا تريدين ؟ وماذا تصعين ؟ وأين تذهبين ؟ قالت وقد انحدرت دموعها : لا أصنع شيئاً ، ولا أدرى أين أذهب . وكما ، وريها أريد أن أأوى بكما عن هذه المدينة الموبوءة . قلت ولكن إلى أين ؟ قالت : سري . قلت : ومتى نرى ؟ قالت : لا أدرى قلت فقد ينسى أن ندرى ، فما يحس بثلاث من النساء أن يهمن في الريف على وجوههن . تلفظهن قرية وتنقاهن قرية أخرى ، يؤويهن هذا الصدة وقد يردهن ذلك . قالت : فماذا تشيرين ؟ قلت : أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين تلك الدور التي كنا نحيا فيها حياة أمن وهدوء .

وهنا أحدثتها رعدة قوية وقالت في عصب وحدة : أي أمن وأي هدوء ؟ إنك إذن لم تعلمي . قلت : بل علمت . قالت : وقد احترأت النائبة على أن تلتقي إليك هذا الحديث ، ألم يكفها ما اقترعت من الإنم ، وما انعمت فيه من الدس حتى أرادت أن تكوني لها شريكة ؟ قلت في رفق : دعها وما هي فيه الآن وعودي بنا إلى ما كنا فيه :

أمّا إذ كرهت المدينة وباعدت بيننا وبين ما كنا نستعين به على الحياة من عمل . فإني أرى أن ننس العمل في قرية من هذه القرى عند غنى من هؤلاء الأعياء . قالت : لقد فكرت في هذا ، ولكني أرى

ليس إليه من سبل ، فإن المرأة لا تستطيع أن تعيش ولا أن تأس . ولا أن تستقيم أمورها إذا لم يحمها أب أو أخ أو روح . قلت : فليس لنا أب ولا أخ ولا روح ؟ قالت : بل لنا من يحمينا ، وقرينتنا التي نصيب منها ما نحتاج ، ونحن أحسن أن نعود إليها . ولئن بلغها ما ليعلن أن من حصونا . أن من العار أن تنسى الأسر نساءها وكرانها ، فإن المرأة عورة يجب أن تستر ، وحرمة يجب أن تروى ، وعرض يجب أن يمان .

قلت : فأنت تريدان إذن أن تعودى إلى تلك الحياة المائسة المتعسة . كنت تحبها بين قوم لا يظرون إليث إلا شرراً ، ولا يعفون عليك إلا كرهاً ، ولا يتحدثون عنك إلا في سحرية ورحمة شر من السحرية ؟ قلت : نعم ، فكل هذا أهون مما لقينا ، وكل هذا أهون مما يمكن أن تلقى . نصيبنا في هذه الحياة المائسة التي لم نحلق لها ولم نحلق لنا . ولقد انقطعت تلك لأسباب التي كانت تدعو إلى حماة الأسرة وإعراض ذوي القرى وسحر الأعداء ورتاء الأصدقاء . لقد انقطعت تلك الأسباب وبعد بها العهد . ولئن بلغنا قرناً ليدكرن أن من بعض أمرنا حباً من ندهر ، ثم لا يمشون أن يسود وأن يسود ، ولا يلبث نحن أن ننسى في حياتنا الأولى يعيش بين أهلنا بأثبات ، ولكن آمنا .

قلت : ويريدان أن يلبس هذه القرية ساعات على أقدامنا . قلت : بل يريدان أن يلبس ، ويستضيف هذا يوماً وذلك ليلة ، وقد أحسست من كل أمر ، فتركنا متعدياً ، فجمع لنا عند من كان يمشي في ستر من ، فليس لنا جهد ، وليس ينسى حياتنا كما أن من سقم . فإني أرى أن نعود إلى قريتنا وندعو أبناءنا إلى الأهل والجار . دعاهم لذكروا .

قلت : وكيف ستقيم لنا هذا ؟ قالت : علمت مد أصححت
اليوم في أغرية سوق خضوع فيه الناس من أطراف الريف . فأتيت
بين الناس والاشجار ، فليس آدم منهم رجلا أو امرأة من أهل غريبتنا
من أهل قرية محورة ، فأتيتهم رسالة إلى أهلنا . ولن يسم الأوسوع
يكون أحى هنا فله أقليل يحضوا إن حث يسغى أن يمشي

بجانب ان اُمّی معہا فی احدث ، واکس حرکت عیثہ قطع
 سے کہ وہ . مہلّا . سہ قد اقلی بحملی احباب وانکس ط وید
 ای تمام .

و يسمع لأصناف دعاءه من ، و في الأصناف مقدمه ، حيث
يلدعه و يصرعه في الطعام . ولا بد من أن يشعير بما يستحق
من أن يسرع كما يصرعه . لا بد من أن أوسع فأنه أختي هذه
لا يريد أن يبيع من يومها القدر بل بعد أن قد لا ير أن يخرج
فها هو من .

وَأَمَّا وَكَانَ ذَلِكَ يَوْمَ تَمُوتُ أُمُّ الْيَمَانِ فَاتَقَا
حَدًّا. وَأَمَّا مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتَعَلَى لِكُلِّ ذَاكٍ عِلَّةٌ

وأقبل من في الدار من النساء ومن انضم إليهن من نساء

والنشاط - عدم - ما -
وشرائح - حفظ والاحظ - ورتفع في أثناء ذلك من دعاء لعباد

يؤثر الله حرامه ، ويعلى مقامه ، ويصرف عنه الآراء ، ويصره على الأعداء .
ويصح نسي وحلات حجلات ، ينعمها الخروع والأدب ، ويمسكها
والاحشام ، حتى إذا استدارت الخمر به حور الحذر قلن : لا ،
والاحشام ، واضطربت الأبدى ومثل الأكره .

أنا في هذا كله مؤيد من مطرته وبقية من محسن موهباً أديراً
أبعد ما من هذه الأيدي العظيمة الحسنة قد عيّن حليماً وعنده
وقد عيّن لها من الخمر عصباً في الفصاح فتصير من موهبة
من هذه الأيدي الرقيقة له من هذه الأيدي لم يكره من
أشياء ولا منه لا في لم تكن خمساً ما في الأضواء ولا هذه الأيدي
من يعرفها من هذه الأيدي يعرفها من هذه الأيدي من هذه الأيدي

ما أهدى من هذه الأرواح الماعزفة إلى بيتي وفي الحضور ، أهدى على
عجل فلا يكاد يستقر فيها حتى يردده الله ، وأما تلك الطائفة من
الأفواه حساً بحده لله ما تأكل من ذلك ، ويرى أصحابها طرقاتاً
لحقوق ثم إلى لأحرف ، بها بين تلك الأفواه الصغيرة
التي لا تقدر ، والتي لا قلبهم ولا يستقيم ولا تنسى ما فيها إلى
الصدق تردده ، وبما يطيل المصعب وتستمتع بما يمسح من الأول ، ثم تنسى
من مهن إلى حقوق تسعه إلى ، كأيما لأكل من من
لا بد فيه من الروية واصطناع المهل والأناة !

ما أتعد ما بين هذه الجماعة إلى حشرها معها حشرًا في يوم هدد الله
بها من قبل تلك الأمرة التي كتب أعجل عليه وأحد في خدمتها حين نجس إلى
شدة لذة ومتاعاً بعد لادن بربان على ما كتب أحد من اللذة والمتاع حين

أحسن إلى طعمي مع رفاقي من الخدم بعد أن يتفرق ما دتنا عن مائدتهم
 ثم أخذت تسرف على ما أذيع يدي مع هذه الأيدي وأحرقت في
 هذه الأفواه ، إنما أنا حائرة من هؤلاء النساء أنظر إليهن صفتاً من
 وألمهي عن الخروع بهذا الحمر الرقيق المستدير الواسع أحطمه بين يدي
 وأصيب منه قبلاً بين حين وحين . وأما نصيب من الطعام وفتح
 وعنا ال ، فقد حار حراً والحياة ييب ويس لرساء حاجتها إلى العناء . وأما
 وحة ماهرة كآب في أرض غير هذه الأرض ، وفي حياة غير هذه الحياة
 ثم تفرغ الحمار ويتفرق النساء جماعات ، وهم نحن أن نتفرغ
 ناحيه . ولكن لا يكاد سمع من ذلك ما نريد حتى يترك نسوة ثلاث
 مجلس حيث نحسن ونأين إلا أن بأحدثن معنا في الحديث . تقف
 جدهن وتحدث مرة نحتصم على وجهها وأحر الشارب وأوائل الشبحوح
 وحتف صوتها كما نحتف حركاتها نشاط فيه غلوبة مربية وميل
 صفة صفة من أنت كاللوم نسوة يستعين بالأنس والآذان
 الأيدي والأفواه وعن الألسنة والخلق والأحواف

قالت هذا ثم التفت إلى أمنا فألقت عليها نظرة قوية تريد أن تشيرها
 إلى الحديث وتكرهها على الجواب ، ولكن أمنا لم تنطق بحرف ولم تعرف
 كيف تنقذ من هذا السيل المهر من القصد . ولما انعقد ساعها انهدأ ،
 صهر على وجهها اصصراب شديد ، ولم تثبت عيناها لعيني هذه المرأة
 حرة العيوب معصنهم . وأصرفت برأسها إلى الأرض كأنها الطفل الصغير
 يخشى عيبه الكار في السؤال عن بعض أمره فيمعه حياة من أن يجيب
 هاتك عنت هذه المرأة إلى وقالت هذه أمك صامئة لا تقول .
 هذه أحدث وحة لا أمل في أن منهم ولا في أن تحب ، فتكسني أنت
 من أرى في عبيث حرة وعلى وجهك شيئاً يشبه القفحة ، وما أطر أن في
 عبيث ملحقاً . . . فولي من أنت ومن أين تغلس ؟ وما حظك ؟
 وما عراضك عن الطعام ؟ وما ليشارك للصمت ؟ قلت ولم أستطع أن أذيع
 صحكك عن نفسي أمام هذا المحوم المفاخي العريب ، وأمام إغراق
 من المرأتين الأخريين في الصحك ، وإغراق أما في الصمت ، وإغراق
 في الوحوم : وأنت من تكوين ومن أين تغلسين ؟ وما أنت وسؤالك
 إنيانا وإلحاحك علينا ؟

قالت مسرعة تتحدث إلى صاحبتها : ألم أقل لكما إنها قارحة ،
 وليس في عينها ملح ، وإنما هي التي تستمع لي وترد علي ! ثم التفت
 وقالت تحقيق . . . أسمعين ؟ تحقيق . . . أنا مكلفة أن أخضعك
 ، ستعرفين من أنا ، وستعلمين أنني تعودت التحقيق مع النساء
 وهو يتفهم ويسهم ويردود ، وكأني برصى حاجتك إلى الحديث
 الاستماع لمتحدثات ، ثم رصت صيحة سمعها من غير شئ أبداً
 في نادر مكد ، وسمعها من غير شئ من كان خارج النادر ،
 مع في الحور منحدف ودهشتار ودعابة ودعاء إلى المحور حتى

[illegible]

كانت دلالة ، تعد إلى العاصمة من حين إلى حين ، فتطلب
مقدراً غير قليل من هذه المروحة الحبيبة له ، المرحضة التي
معها نساء مشاهير وبنات عريضة من كل مكان ، في بيت من

والمتاع ما لم تكن تستطيع أن تستصحبه في القطار .

[illegible]

لا سر . واحد في الأفره والحدود مدة لا مشقة فيها ولا عناء كهله
منه من السعة والسعة من الحد من السعة أو الحصية
ساعة من السعة من السعة من السعة فلا تمنع
مها ذلك إلا بمشقة وجهه .

[illegible][illegible]

١- كبر من زيجات ، و شجوة كنه من ...
 ٢- ...
 ٣- ...
 ٤- ...
 ٥- ...
 ٦- ...
 ٧- ...
 ٨- ...
 ٩- ...
 ١٠- ...
 ١١- ...
 ١٢- ...
 ١٣- ...
 ١٤- ...
 ١٥- ...
 ١٦- ...
 ١٧- ...
 ١٨- ...
 ١٩- ...
 ٢٠- ...
 ٢١- ...
 ٢٢- ...
 ٢٣- ...
 ٢٤- ...
 ٢٥- ...
 ٢٦- ...
 ٢٧- ...
 ٢٨- ...
 ٢٩- ...
 ٣٠- ...
 ٣١- ...
 ٣٢- ...
 ٣٣- ...
 ٣٤- ...
 ٣٥- ...
 ٣٦- ...
 ٣٧- ...
 ٣٨- ...
 ٣٩- ...
 ٤٠- ...
 ٤١- ...
 ٤٢- ...
 ٤٣- ...
 ٤٤- ...
 ٤٥- ...
 ٤٦- ...
 ٤٧- ...
 ٤٨- ...
 ٤٩- ...
 ٥٠- ...
 ٥١- ...
 ٥٢- ...
 ٥٣- ...
 ٥٤- ...
 ٥٥- ...
 ٥٦- ...
 ٥٧- ...
 ٥٨- ...
 ٥٩- ...
 ٦٠- ...
 ٦١- ...
 ٦٢- ...
 ٦٣- ...
 ٦٤- ...
 ٦٥- ...
 ٦٦- ...
 ٦٧- ...
 ٦٨- ...
 ٦٩- ...
 ٧٠- ...
 ٧١- ...
 ٧٢- ...
 ٧٣- ...
 ٧٤- ...
 ٧٥- ...
 ٧٦- ...
 ٧٧- ...
 ٧٨- ...
 ٧٩- ...
 ٨٠- ...
 ٨١- ...
 ٨٢- ...
 ٨٣- ...
 ٨٤- ...
 ٨٥- ...
 ٨٦- ...
 ٨٧- ...
 ٨٨- ...
 ٨٩- ...
 ٩٠- ...
 ٩١- ...
 ٩٢- ...
 ٩٣- ...
 ٩٤- ...
 ٩٥- ...
 ٩٦- ...
 ٩٧- ...
 ٩٨- ...
 ٩٩- ...
 ١٠٠- ...

وطلساتها وودعها . وهي حين رأيتها كانت تروو القرية لتحمل إلى أهلها بعض ما يحتاجون إليه من أتباء الغيب .

ولم يكذ بتصل الحديث ساو بين هؤلاء السوة حتى كدت نهيمة أسرع إلى مفوسنا ، وأحرص على أن تمتلكنا وتصل بينا وبين أصدقائنا من الحن والعناريت ، لم نجد في ديت مشقة ولم تتكف له جهداً فهذه الفتاة الداهية التي لا تكدرى ولا سمع ولا تفهم ولا تحب حقيقة أن تلتفت المحور الساحرة إلى نفسها . وقد فعلت .

ما تلتع هذه العجوز في السؤال لتعرف ما هذه 'مناعة' واعانة لا تحب ، وأمتنا أشد منها حرصاً على الصمت وبعرفاً به . والسؤال يحه إلى دوسها ، فأصطر إلى أن أرغم أن نأخذني عنة قد أعيت الطبيب . وداء لا يعرفه ولا يجد له دواء ، وما أبسر ما نعصر السرة ويثر منها الودع على الأرض . ثم ما أسرع ما تعمل فيه بد قفينة حمماً ونهريفاً ، وصمماً ونيراً ، تلائم سه ونحالف ، وتتحد منه أشكلاً لا تقرأ فيها من أساء الماضي والحاضر والمستقبل أعجب العجب .

إني لأراها الآن وقد مصت أعوام طوال منذ ذلك اليوم وهي تطر في الودع وتطيل النظر ، ثم تصهر على وجهها هذه الآيات التي تفل على أنها تحاول أن تفهم شيئاً فلا تستطيع . وإني لأسمع صوتها المظم الذي كان هامساً دائماً مهما برنفع . وإني لأحفظ جعلها منذ ذلك اليوم ما نسيها ولن أنساها . وكيف أنساها وقد صدقها الزمان ؟ فطربت إلى ودعها . ثم أطالت النظر فيه ، ثم رعت عيناها إلى أختي فأطالت النظر في وجهها ، ثم عادت إلى الودع فأنتت عيناها فيه . ثم رعت رأسها وهي تقول للفتاة . إن أمرك يا انثى لعجيب ، إني أراك بين اثنين : أحدهما

يخضع وسيروك ، والآخر ترك يسحبك . وني لأحاول أن أفهم فلا أستطيع . وإني أرى لك يا انثى أن تستشري سادساً من حسن سادساً من أولياء . وما أرى أن هذا عليك عسير ، هي هذه القرية نقرسها والتي تستطيع أن تلعبها في ساعة وبعض ساعة ما تحسن . فيها مدم مبدلاً فلار ، وإنه ليأتي بالأعاجيب ، وفيها دار فلاة وإن قرسها من حسن ليحدثت بالأعاجيب أيضاً . ولم نكد نهيمة مطلقاً خمسة الأولى من حديثها حتى وثت أما كأنها دعت إلى الوثوب دمعاً آلياً ، وانطلقت مسرعة همزها إلا بعد وقت طويل .

٧

ها أنت ذا أيها الطائر العزيز تشرو في حمر المظم الساكن بداءك السريع العبد كأنه استعانة المستعيت . . . حطت ؟ . . . أناؤك ؟ وما الذي يغريك في ويساطك على ؟ لا أكاد أمهي في اليوم حتى تسرع إلى توقطني ، كأنما أحدث على نفسك أو أحد عبرك عبيك عهداً ألا تحل بيني وبين النوم . وكأنما كفت نفسك أو كعت عبرك أن توقطني إذا تقدم الليل لتظهر في من الأمر على ما كان خديقاً أن يفوتني إن استسلمت للذة الأحلام . . . أنت بداءك سريعاً بعيداً أولاً نعه قد أبقطني ، وما أرى أني سأعود إلى اليوم دون أن أشهد شيئاً كالأدي شهدت أمس حين كانت أختي ماثلة داهلة كأد تضر أحرار السماء .

في لأشعر بأني سأروها صنفه دة حيث أيتها أمس . وني لأنيا .

بعض إليها ، ولكن ندامك لا ينقطع ، إن لك شيئاً .

ماذا ! إن حو الليل اعظم الساكن انهييب ليس حالصاً لك هذه
سبيله كما نمود أن يعنص من قفل . ماذا أيعظ الطير ؟ فري لأسمع حق
أحسها . وأحسن كأنها متشرة قد خرجت من أوكارها حائرة مصفرة
في هذا البحر العجيب . ماذا أيقظ الدجاء ؟ فري لأسمع ساحبه قوته
متصلاً بعيداً فيه إلحاح وترجيع كأنها تأسو من لا سمعها .

د. ایضاً اساساً، و بی لایحه حرکت - جرح انداز - و بی لایحه
بند عمود و بنادون، و بی لایحه لایحه - و بی لایحه لایحه

مادا أخطأ من في الأثر ؟ إن الحركة من حول لشكر وتخط
وتشد ، وإلى كشمع ، صرع ، مستر في الحركا تشتم الدخان الكسف ،
وهذا يدرك أيها الخطر العرير ما رن مصداً سريعاً بعيداً ، كدث
توكل بيده صي وحدي ، ويدا وكلت يافته عان من حيفاً ، والأجب ، حيفاً
اعلم ! إن كل شيء ، قد استيقظ من حوث ، ولكن يدرك ما رن
مصداً سريعاً حيفاً أن تحدث إلى حوم ؟ ولكن أهنس بكل
ما أحسن حور من حركة وصحيح وصحيح ، فأسار أحن
هذه المسألة انداهه ، ماد ، حدث ؟ ولكنها لا تعجب كأ ؟ لم سمع شيء ؟
فأحدثني حق وبيت ، وأمرها هراً عيفاً وأنا أصعب ها ، ماد ؟
تسمعين ؟ ألا تريين ؟ هالك تشه وتحببي في شيء ؟ من الوحل
تريدين ؟ فأتركها منيئة ما وأخط فاء الدر حيث اجتمع الس
يتساءل ويتجاوز ، وبشتد ينهن لعط محتلط لا يكاد يتقصي

هناك أحد أمنا بين هؤلاء النساء، شاهدة كالعائنة، ومنسقة كالأممة، تسمع ولا تقول. فإذا سألتها عما حدث أجاتني في صمت

هاتين حريم . رعموا أن رجلا قد قُتِلَ غريباً من القرية يقال له عبد الحليل ، وقد جاء الصريخ إلى المدينة فأيقظ رجاله وهو يستحثهم للتماس القاتل . وفصينا بقية الليل ساهرات نسمع ما يصل إلينا من الأحبار التي إن ابتدأت فلا نهاية لها ، وهي أحبار القتل في المدن والقرى وفي الحقول وعلى الطريق العامة . وقد رعم من حدثنا من أهل الدار أن مقتل هذا الرجل الذي صرع الليلة قد كان أمراً محتوماً .

لقد كان هذا الرجل شيخ الخمراء في القرية ، وكان قوياً شديداً
أساس عظيم السلوة . وقد جرى القرية من النصوص والمعتدين ، وكانت له
في القوم آثار لم تنس ، فهم يطلبونه بها . وقد اضطرب لقرية مد
ليال ذلك هذا الرجل أقبل وقد انقضى من الليل كثره على بيت من
البيوت . فحمل بطرق ماء طرفاً غيباً ، وسدعو صوته بصوت كأنه
الزعد . أمي أنها احمى وإن النصوص قد افتحموا عصب بدر . فـ
أهل البيت هذا الطريق وهذا النداء ، وأسرع الرجل في ذلك . فـ
إلا شيخ الخمراء يرفق ويرعد وبلح في الدبر ، ثم دحرج مداره وحرف
تجربته وغرفاتها يستحسن النصوص ولكنه لم يجد أحداً . وقد ربيعت
أساس وأجمعوا حواء وحول صاحب الدار ، وهو تقسم وحفظ في القسم
لقد رأى النصوص يقتحمون الدار اقتحاماً .

[illegible]

وقتلوا عبد الحليل. وها هو ذا العمدة يفرق رجاله في كل صوب . يأمرهم باقتحام هذه الدار ، وبالبحث عن فلان ولقاص على فلان والوثوق من فلان . وهذه القرية هائجة ماثحة تسأل وتبحث ، وتستغص وتزنازع وهذه جثة عبد الحليل طريحة غير بعيد من الحضر ، قد دبرتها الحياة بعد احتصار طويل ثقيل ، وقد قام عندها الرجال يحفظونها في مكانها حتى تأتي الشرطة من المدينة ، وحتى يأتي المحققون . وقد أفلوا جميعاً بعد أن ارتفع الصبح ، فأقاموا حول الحثة حيناً يألون ويشرح الطبيب . ثم أفلوا نحو القرية ونساء الدار مشرفات بظنون إليهم ، وهم يسعون إلى بيت العمدة ليشربوا القهوة ، ويمصوا في التحقيق ، ويصبوا شيئاً من طعام .

وأنا مشرفة أنظر مع الناظرات . ولكن ماذا ؟ إلى لأراجع مسرعة وقد اضطرب قلبي اضطراباً لا يكاد يستقر معه في صلبي ، وقد تكلفت جهداً عجباً لأحس صيحة كادت تسعث من فمي ، وهذه أمي تحرني إليها لا تعمل شيئاً ولكنها تهبط معي هباء الدار ، ثم تهدئي بعض الشيء . ثم تقول لي كدهسة إياك أن تطهري أو أن تدعي هذا المكان مرة والله إن رث لم يصرف حتى يستصحبك ذلك أن كسب قد رأيت الأمور لماذا أكذب نفسي ! لقد همت غير مرة أن أسمى إليه وأن أسأله عن حقيقة . وأن ألق عليه في أن يستصحبني ليردني إلى ذلك الحية سائمة ويحميني من هذا الظلام الذي كنت أدفع إليه على غير إرادة ولا رأي .

نعم ! قد همت بهذا كله ، ولقد كنت أفعل ، ولكني رأيت

أمي وما كانت تستصحب من مؤس قديم ، ورأيت أختي وما كانت تستل من مؤس حديث ، فأثرت شقاء هاتين الشقيقتين على ما كنت أحب لعمي من الحضر ، ونفيت معهما أنظر ما تعمر لها الأيام

٨

آمنة . آمنة . أقل . هذا صوت أمنا ينهي لي ، وقد انتحيت ناحية مع ربوة وحسرة على السطح ، يحدث ألواناً من الحدث ، وأختي حالمة غير بعيد قد شعت عاتقاً يملأ بها من هم وحزن ، فإذا سمعت الصوت أسرع إلى أمي في ناحية لأخبرني من سطح الدار ، فإذا هي قائمة قد ظهر عليها نشاط وانحسرت عن وجهها سحابة الحزن التي كانت تعشمة ، وهي تنسم وتشير بيديها وتقول لي اطربي اطربي هذه والله من دمي وركن . فأنظر فإني أعرأيت كأنه الشيطان وقد أراح قريباً من اندار حبلين عصمين وأحد يحط عن أحدهما بعض لا تقدر أمي منشرة منهكة تشتر وتلح في الإشارة وتقول . ألم تعرفي حالت دصر ؟ ألم تعرفي هذين العصمين ؟ عرفت حالي ، فما أكثر ما كنت ألهه ثم صفة وانصا ، وما أكثر ما كنت أحافه حين ألهه وأكرهه . هذا لعن الذي ستركن من بعض به ، وهذه بهجة انباسة لي يمد بها حديثه . وهذه أصوات تصدع أذني به .

حزم وعزم وشدة لا تقبل مراجعة ولا تسمع بجدال !

نعم عرفت حالي دصراً . وكنت أتى كثيراً ما كنت ألهه .

سهم راحته هذه دلتنا أن يكون هذا هو الموضع
 من مصلته . نحن دققنا بحثاً له . إلى راحته والحبوب والحبوب
 وقد اطمأنت الدار بالأعرابي ونفى من كرم مصيبه وثباته
 ما أرحسه . فلما مضت ساعة أو ساعتين والناس مجتمعون حول عمدتهم
 يحاصرون فيما تعودوا أن يحاصروها من الحديث . قال هذا الرجل
 عندك ودائع يا عمدة . هارداً سيبا ودثعا . والله تأمر أن تؤدى
 الأمانات إلى أهلها . قال لعمدة ودائعك محفوظة لك . مردودة
 عليك يا شيخ العرب . فما ذاك ؟ قال الأعرابي امرأة أميت عند
 أريم ومعها ثياب . سأدت لصيفة فأوثنها وأوتت سنبل وأحبت
 قاهر . وسميت مشاهر . ونحن أعرف الناس بحق الكرم . قال
 وهذه امرأة واستأجر ؟ قال الأعرابي . هي حتى قال
 على الرحب والسعة . وما فعلت إلا ما كان يجب على .
 دور . دام تمتع بلبوء العرب . ولكن ودائعك يا شيخ
 العرب من نرد عليك حتى تقيم بينا حباً فتسمع منا وتسمع منك .
 فإن حديث الأعراب بلدنا ويرحمنا . وقد عهدنا به عند رجل عما
 سعيد وأصحابه . وكانوا قد جيموا في طاهر القرية أشهر . ثم ارتحلوا لا عن
 قلى ولكن عن رغبة في الرحل . واتصل الحديث بين العمدة وأصحابه وبين
 هذا الأعرابي حتى انقضت ساعات السمر .

أما أنا فلم أطعم اليوم في هذا الليل الطويل الثقيل . لأن أخنى
 ولم يفتح طائري العرير إلى أن يوقظني سدائه السريع
 العبد . ولم أسمع منه هذا السدء كأنه عرب أن ساءة مؤثرة فلم
 حرج . فاستيق في الجو الفصح يسه عري من الذين لم
 تفرقهم المصوم والأحزان .

مدت إلى حتى كنية صيفة الصدر مكعبة مع دنت أن أحق . ما أحد
 من فأناها مقدم حالاً وبأنا مرتجلات في
 وجمعت أربس لها الرحيل وركوب الإبل
 وحسار . ونظر إلى هذه الحقول لمسة بينا وبين البحر . ونظر
 إلى ما الذي يعص بينا وبين بلادنا في العرب . ونظر
 إليه مقلات عليه بعد أن نظرا إليه مديرات عنه . ثم عبر هذا البحر
 ونسى على هذا السهل الحميل الضر الذي تلتقي فيه أرض الصحراء
 لمحنة وأرض الريف المخصصة . ثم تصعد تصعيداً هيباً كأنما ترقى في
 للروح إلى هذه الهضبة الحميمة التي تقوم من ورائها فريتنا وادعة هادئة
 كأنها تحتمى . من كل طارق يأتيها من الشرق . أنا أربس لها هذا كله
 بلساني . وأنكلف لها مطهر المراحة له المعتبلة به المقللة عليه في سرور
 ولذة وشوق . والله يعلم إن كنت لخرقة أشد الحزن مبهشة أشد الابتاس .
 تنارعي نصي إلى ما وراءنا نحو الشرق من هذه المدينة الكبيرة التي
 ترامت أطرافها . وامتدت على ضفة الليل هادئة وادعة ناعمة بما فيها

[illegible]

أوس لأختي ما شغفه أشد لعصا ، ونبي نضى عما ليس إله من
مسيل ، يا أما حظي في حظي من أفت عبده لأنه كاد ينهر في
سحفاً سحفاً ، كدر في سحر في أن أنقص من حوى في مقام
النس ، وثأ أن من اللاد وأن أهد على وجهي من أشق مسودة من
لزارع واغفور ، عوى كما ، مات محنة في قبعة ، حتى أدمع من
الصبح أو مع الضحى ، وإذا أنا حيث أحب أن أكون .

لم أقف عند هذا الخطر ، بل سار برأى مني حتى نزلت
مراة سرها فوجدتها ميتة استهم من شدة البرد لأن ثيابها لم تكن
نكح بسورة وانما كان لاسلاسله وارتدت عن عطفها وكنت في

في الرصد "هـ" ص ١٢٤ داء حميدة في ضوء النهار فصلاً عن طعمة الليل
و ص ١٢٥ في رءوس من ابنتين تحملان وعدهما ثقل الأحداث والخطوب !

أفلمى آدم ما آتاه ، و مى غصب ولدش ، و حدث ، و خبر
 ان عاد و ثمود ما نزلت ان يهتفوا لعمرك ان عاد و ثمود

وہیہا لیلک اندس ، وإن ہدہ الجمع التي احدثت
عینہا فی صحو، وصحت سابقہ ان مصروف عن کیں متکثر ولا ۛ

وعن كل غناية إلا ما ألقى الخلق يا أمة في ربهم لوجهين ، وإن
التحدث بما سجد في القربة من أمس ، ولما مستقبل غيب من هدمه

وامتناع بالحياه الزايفه ، لا نخدم أحداً وقد يخدمنا ناس

ولكن احنى لا نسمع لى او هى نسمع ولا نفهم عى هى مثل

لا تحب الرحيل ولا تحن إلى العرب ، وإنما تحن إلى هذا الشرق الذي

ترك قلبها فيه هناك في ذلك البيت الجميل الذي تحيط به هذه

الحديقة الواسعة ويقوم عليه ذلك العامل من أهل الريف ، ويعيش فيه

ذلك الشاب الذي يسموه الباشمهناس .

في التمسك حتى امتنعنها عما أسفح من دموع ، ثم أعف وأغلو
 في العف ، ثم رأى سائقها جوبها كله على أمنا وحالك ، وأستوثق
 لها من
 لعمري
 إذا سمع
 وأظهر
 لا يلبث أن يزول .

يا لاء
 وإعنا
 والقسم
 لا قبل
 القطر
 وهو
 السكون
 أخرجنا
 عمادا
 أحنى
 وسبحني
 تربيد
 تردده
 امرأتين أو من ساء ، وكل امرأة عندها بين رجلين أو بين رجال . قالت

أ
 وسبعينها ، وشتمت أحدها أشد من سبعين لأخرى
 وهذا امرؤ يضطر
 وبات من يستفطون ويخرجون من
 وذهب إلى الحفل ، ونحوه
 وعيوب واحدة ووجه حائفة
 الإقدام ولا نستطيع امتاعاً على هذا الدعاء .

هذان الحملان قد هينا للرحيل وهذا حارسا قد قام حبسهما كأنه
 النبلان ، وهذه أمنا دعوا إلى الخروج ؟ وهي
 من عرما من أهل الدار . ثم تمضي ساعة وساعة وإذا صوة الصبحي
 يعمروا في هذا السهل الربيع الحليل لدى تمتد فيه عريين وثياب هذه
 الحفول النضرة ترتاح إليها النفوس والأبصار ولكن هناك نفوساً لا ترتاح
 وإعناهي مضطربة دائماً ، وأبصاراً لا تستقر وإعناهي رائحة دائماً إلى أين
 يمضي بنا هذان الحملان !

إعنا يمضيان بنا إلى حيث الأمن والدعة ، وإلى حيث المرو والمعة ،
 وإلى حيث تقضي حياتنا كما تعود أمثالنا من فتيات القرية أن يقصين
 حياتهن هادئات فاعمات ، حتى إذا تقلعت من السن وأدركهن ميعه
 الشباب ونضرتهم سعى إليهن الأزواج من شباب القرية أو من شباب القرى

المخاورة ، فأصحت كل واحدة منهن سيدة في البيت أو سيدة في الحيام ،
 واستقبلت حياة فيها الخد والعمل والكد ، وفيها الأبناء والبنات وما يستعرون
 من سجة وفرقة عين ، ومن شقاء وحزن وأمل وإشفاق . انظري يا ابنتي
 الكبيرة إلى كل هذا النور الذي يهده الصبح علياً صلياً ولدي يعمرنا ،
 والذي نعصى فيه كأننا نحوص لجة البحر . انظري إلى هذا النور الذي يعمرنا
 ويغمر السهل من حولنا ، وانظري إلى هذه الحفوف تسط عن يمين
 وشمال لا تعدد نهي ، وانظري إلى هؤلاء الرجال والنساء وإلى هؤلاء الفنان
 والفنات وقد ملأهم النشاط ، وبعت فيهم الخد حياة لا حد لها ، فهم
 يذهبون ويعبون وهم يعملون لا يعرفون كلالاً ولا سأمًا ، وأصواتهم ترتفع
 لا بالشكوى ولا بالأكين وإنما ترتفع بهذا الغناء السادس الحلو الذي يبعث
 في هذا الجو سمات سادحة حلوة ، ولدي بصور الأمل في عبر إسرار .
 والرضا في غير استكانة ، والاطمئنان في غير حزن ، وحب العمل على
 كل حال ، والله نال على كل حال أيضاً

انظري يا ابنتي واسمعي ، ثم سلي نفسك . أنت حزين فيما نرى أو فيما
 نسمعي ما ينير خوفاً أو يبعث روعاً أو يدفع إلى بأس ؟ كل شيء آمس
 وكل شيء يدعو إلى الأمل ، كل شيء هادي وكل شيء يدعو إلى
 الملهو . إن ظلمة الليل لمنكرة وإلها لتحب الخوف وتبهره ، وإلها لتبغث
 الأشباح من مكائدها ، وإلها لتعري القلق بالعوس وتسلط المم على
 القلوب . . . لقد كنت يا ابنتي تثيرين في نفسي مثل ما كان يثور في
 قلبك من الخوف حين كنت تتحدثين إلى " وظلمة الليل تعمرنا من كل
 مكان . فأما الآن وقد انحلت هذه الظلمة وأصحت لا أمد عيني إلا

أنت . ولا مد عيني إلا سمعت ، عرفت ، صحتك مث ومث مث هذه حسن
 . . . أنت ترين وعرفت . ومن مث لأشباح حمراء بني كادب به عني مث
 ومن ثم مث . . . والأصحت من نفسي ومن ابتادها لك
 بعض شيء . وانظر مث إلى حد ما . . . وعندي في أن تستحصر
 لأشباح حمراء . إلها لا تستطيع أن تبهر ولا تحرق على أن تراهي فصلا
 عن أن تمش أمدك أو أن تدرك . . . الأشباح لا تحب . . . ولا تستطيع
 أن تظهر في وضح النهار . . . إنما الأشباح والخوف والمرح وأمس بات
 ليل . . . تظمن إليه ويظمن إليها ، تستغل به وتسط عليه هذه المقدم
 ساكن الخيف ، فإذا انسم لصبح وشرق لصبحي وستيفظ الحياة
 دت كل هذه المروعات . . . وأجاست مع السلام . . . هم ينزل أثر في
 نفس ولا يصدق على قلب . انظري إلى هذه الصبحي المشرق ، وأقصي
 بعض إشرقه على نفسك . انظري إلى هذه الخدة التي تملؤها لشاط
 فأقصي منها على نفسك . أنت تحسب حاجة إلى أن ترقعي صوتك
 بالعد . . . أنت بتعني هؤلاء الشباب عن يمين وشمال ؟ . . . ثم انظري إلى أمنا
 وحالنا ، إلى حميم ليسعي هما مرحاً شديد نشاط . . . وإلها ليحدثان
 في هدوء وأمس واستشار وشيء من الحد كائنا يدكرب أيام صباهما
 وشابهما ، وكأما يودان لو رجعت هم الأيام إلى مثل هذه الس التي نحن
 فيها . أنترين عليهما مصهر من مظاهر تربية أو آفة من آفات حكر ، أو دليلاً
 من دلائل كيد ؟ كلا ، إلها يبرحان ما حولهما فإذا هذا حياة وأمس
 وأمل ، فلنكن مثلهما حياة وأمس وأمل .

أيسر حديثي هذا سيبه في قلب حتى أنه يبدد له روحه
 سيبهما إلى نفس ، وإد هي تظمن بعض شيء لا سمع بحبه وبكها

لا تعرف في العوص . إنما هي كآفة ممتعة تعني نفسها ولكنها كآفة
هادئة لا تثير روحاً ولا جوعاً ولا ثباتاً والصبر ينقص في مسفرة
حيلة يجمعها إلى العوص هذا هو الذي يردده في راحة ويحتاجاً
كلما نغم الأبرار ، وهذه الحمول خمسة عشر سنة في كل سنة
العام في يرتفع في الجو ويخرج في الهواء فيكون في الجو
لا يجر حربة إلا دون إلى مرة واحدة حتى لا يسمع بها ولا
سمع "سمع" وكما قد نبت في الجو في كل سنة في كل سنة
لنا أن سمع في راحة ، وبت أن أن نأكل في راحة في الليل
الليل في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
لعلنا نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
الصحي حتى نكون قد أتينا إلى بني وركان .

ثم يخرج في الجو في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
لدار أحسن من راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
وإن أي ساركن في هذه راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
أنيل ولم يراجه أما ولم يراجه ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
ويها كما نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
من طعام كان حالاً قد خرج من راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
كان يعرف في قرية محورة . فيعيب ما ساعه وساعه وساعه ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
الليل ويسط ظلمة بظلاً ، ونكا ستيئس من استئناف السر ويكد
نظمنا إلى البقاء حتى يفر الصبح .

ولكن هذا حالنا قد أقس ، وهذا صوت العلة الفاضع يرتفع بالنداء

في لرحيل . وها نحن أولاء يستحب سداً ، وهؤلاء أهل الله يكونون
عنه هذا لفر حين يقيم الناس وهذا الاضطراب حين يسكن الناس ،
ولكن حالنا إذا عزم أمضى . وما هي إلا ساعة أو نحو ساعة حتى كان
خمسلاً قد دها ب دها إلى الصبر في العمة وقد أسفل الليل أساره من
حول إسدالا ، وقد نامت الخياة وحلت الحقول وسكن كل شيء . وانقطعت
أصوات ، إلا هذه التي تأتي من بعيد بين حين وحين فتنبأ ، فإذا هي
أصوات الكلاب تسبح في القرى البعيدة ، وإلا هذه الأصوات البسيرة
عنده مخنفة المتصلة التي تحيط بنا وتمتج بسكون الليل امتراحاً
تحدث شيئاً من الموسيقى الرائعة مروعة معاً ، وهي أصوات الحشرات
وتصدع المسنة في الحقول وعلى شواطئ الأقبية .

وربما ومن إليها من حين إلى حين صوت بعيد يأتي من بين أو من
شبه مسكره ويرتفع له وهو نداء بعض الطير ولعله نداء النور ، وربما
أربع صوت حال بعض عده النور مخرجاً ترجيحاً حيلاً غنياً معاً ، ولكنه
لا يسمع إلا قليلاً ثم يقطع . ويمضي حالنا في حديثه مع أمنا ، أو يعرف
في نغزق أمنا في الصمت العميق ، وأنا وأختي نسمع لها كنه وسحدث
في شيء من أهمس الخدث أو حل كأننا نمر من شيء نجاهه أو نعلم
على شيء نحدث . ومن يدرى ، بعضاً كما نتظر ظهور الأشياء الحمراء ،
ونحن من أن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
نحدث . ومن يدرى ، بعضاً كما نتظر ظهور الأشياء الحمراء ،
ونحن من أن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة
في شيء نحدث . ومن يدرى ، بعضاً كما نتظر ظهور الأشياء الحمراء ،
ونحن من أن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة ، وأن نأكل في راحة

الآئمة ! بك لن تستطيع أن تردى نفسك إلى البراءة والأمن .

نعم ! إن صوتك أيها الطائر لعربير قد أيقظي وأيقظ هذه الأم المجرمة التي سمكت دم ابنها بيد أحبها ، وأيقظ هذا المحرم منه إلى أن حربته يجب أن تحي وإلى أن آثار رثمه يجب أن تريا . واك لم يوقظ هادي وما كان يسعى له أن يوقظها لأن صوتك مهما يقو بهما بلح على يستطيع أن ينعذ من أسرار موت . إنك لترسل صيحات متصلة متلاحقة وإلى لأشط مثلك للعصيح . وإن صد سا نجلأ ، انصاء لعربص من حوت ، ولكهما لا يصرف هذه المرأة عن بكائها السحيق . ولكهما لا يصرفان هذا الرجل عما هو مفضل عليه من إحصاء هذا الحسب في حيرة التي لم يفارقنا آخر النهار إلا ليبيها .

لقد كنت المجرمة ومع كتاب أحله ، واستعدت هادي حطها من العدة . وماتت لأن شئت انما أعباها ولأنها لم تحسن أن تدفع عن نفسها غوايته .

إن صوتك ليست في حدة مستعينة وليس من بهت حدة ليست في مصء عجبا ليس من بحب ، وإن هذا رسل من حدة ، حربته وعجوت ثوبه ثم سمكت إلى هذه المرأة ، صوت مبلح فيه اربع دقة حدة وده " سر هديته " الرجل فبدأ يصار عليه ردد هذه " سم " في صوتك أن لو حدة " سم " بالذير . ثم يمثل أمامنا ويقول :

تعب ، والله أن هادي ذهب مع من ذهب من الأمر .
الوباء الذي ألم بها منذ أسابيع !

أما أنا فقد انقطع عني صوتك أيها الطائر العربير قليلا قليلا ، وانقطع عني صوت حالي ، ثم انقطعت عني الأشياء كلها أو انسلت من الأشياء كلها ، وإني لأراني أمرض في بيت خشن حقير .

١١

منى بلغت هذا البيت ؟ وكيف بلغت ؟ وأي طريق سلكت إليه ؟
وكم من يوم أو كم من أسبوع لبثت فيه ؟ وكم من يوم أو من أسبوع احتملت أهدال هذا المرض الذي أخذت عمراته نحلي عني خطوات في كل يوم ثم لا تلبث أن تتابع وتترككم ويركب بعصا بعصا وتأخذني من كل وجه فأجهل نفسي وأجهل من حولي كل شيء وكل إنسان . ولا أحس ولا أرى حين أعرف فيها وجع أخرج منها إلا هذه الصورة المسكرة الشعة التي لا أذكرها الآن ولم أذكرها قط إلا حرت في حسي رعدة عنيفة مؤلة وأخذ قضي اضطراب لا حد له ؟

سنة أعيانها على عسي ألف مرة ومرة ، وسألتها عني عسي ألف مرة ومرة . فلم أصبر ولن أطفر لها نجوب . وقد أذكر صوتك أيها الطائر العربير وهو يحف ، أليس . ومعني فيه " ليه " آله صوت المودع سبع المسافر ، ثم صار يبعد بده شيء " شيت " إذا أردت أن الصوت ارفع المحرم صوت حالي . أتم وهو يهدج ويسعد عني شيء فشيء " ليه " بعض واشمئز
إنما أرى قطعة من اللين تسعى إلى سعيها هادئا أول الأمر ولكها

تسرع شيئاً فشيئاً ، وهذه الطلقات تتكاثف من حولي كأنها الأمواج العظام ، وهذه الأصوات تنقطع وتعد ، وأنا هذه بغمري الموج وأدخني في الليل فلا أحس شيئاً ولا أرى شيئاً ولا أشعر بشيء ، يا له من يوم عمين طويل ! إن الأحلام قد أُلحَّت عليه ، فهي تروغني فيه تروبعاً متصلاً ليس إلى انقطاعه من صيل .

أكنت فائمة ؟ أكنت مستيقظة ؟ أكنت مريضة ؟ أكنت صحيحة ؟
أكنت عاقلة ؟ أكنت داهلة ؟ لا أدري ، إنما أعلم أنني كنت شاعرة شعوراً عامضاً ولكنه قوى منع كافي قد أقمت إلى ينبوع يتصحر أمدى من الأرض في مكان رطب . بعيد الآفاق لا يقوم فيه شيء ، ولا تقع العين فيه إلا على هذا اليسوع وعلى ظل مقيم عنده لا يربم ، وعلى ظلال أخرى نجىء كأنما أقبلت ترور هذا الظل . فهي تلم به حياءً وكأنما تناحيه وكأنه يسمع منها وكأنه يرد عليها ، وكأنني أسمع نحيي هذه الطللات ولكي لا أحقق ما أسمع . وكأنني أسمع نحيي هذه الطللات ولكي لا أتبين ما أسمع . . . وأنا حاملة هائلة لا أحس ولا أرى إلا هذا ينبوع الذي يتصحر في عبي انقطاع ، وهذا الظل الذي لا يتحول عنه وهذه الطللات التي تعد من حين وحين . يا له من ينبوع كريمة أود لو أحول عيني عنه . ولكن حرته تحتدب عيني إليه احتداباً إنه ليسوع عزيز ، ولكنه لا يتصحر منه الماء ، وإنما يتصحر منه لبداء . يا له من ظل حزين كئيب شاحب مشرف في الشجوب أحول أن أعصر عيني وأن أعلق نفسي فلا أحس به محضراً ، ولكن شحونه يسهون نفسي ولكن حرته يترق قلبي ولكن انحداره على هذا ينبوع يمتلئ لوعة و لوعة

واشئاً ! يا لها من طلال تذهب وتجيء هادئة لا تكاد تشعر ولكن في حركاتها ما يملأ النفس حزناً وهلعاً ! ما لي لا أبت عيني في هذا الظل المقيم ، وما لي لا ألت عيني في هذه الطللات المضطربة التي تذهب وتجيء ؟ أنا فائمة أم مستيقظة ؟ أعاقلة أنا أم داهلة ؟ ألت أتبين في هذا الظل المقيم ملامع أحتي فما لها إذن لا تكمنني . . . وما لها إذن لا تدعوني . . . وما لها إذن لا تناجيني ؟ لقد عرفتها محبة لي واثقة بي مطمئنة إلى ، فما لها لا تظهر لي شيئاً من هذا الحب ، ولا تبدي لي شيئاً من هذه الثقة ، ولا تبين لي عن شيء من هذا الاطمئنان ؟ إنما هي مكبة على هذا ينبوع تنظر فيه كما تنظر الفتاة الحميلة في المرأة . ثم تبحث في هذا ينبوع ؟ أتراها تلتهم صورتها في هذا الدم المتدفق ؟ وما لها لا تكلمني ، أليست ترائي ؟ ما لها لا تجيئني ، أليست تسمعي ؟ ما لها لا ترق لي ولا تعطف علي ؟ أليست تسمع هذا النداء الذي ينبعث من فمي باسمها في صيحات قرية عذبة متلاحقة ؟ ! إني لأسمع هذه الصيحات ولكني لا أرى من أحتي أنها تسمعها ، وكأن هذه الصيحات تحيدها وترعجها ! فهذا ظلها يستخفي وتستخفي معه الطللات الأخرى ، ويستخفي معها ينبوع الأحمر ، وهؤلاء أشخاص آخرون يسرعون إلى ويدنون مني ويستجيبون لي ، فلا أكاد أنظر إليهم حتى أتبينهم ، ثم أحافهم . ثم أغضهم ، ثم أتق محصرهم بالصمت والهدوء . . . إنهم أهل الدار قد سمعوا صياحي فأقلوا يرقون بي ويسألوني عما أجده .

إنهم أهل الدار ، وما أشد بعصي لأهل الدار . إني لأرى بينهم أمي وإني لأكره أن أرى أمي . كلا ! لأكف عن هذا الصياح لعل

أهل الدار أن يصرفوا عني فيحبوني محضهم الكرية، إلى لأخذ نفسي بالصمت وأكره نفسي على الهدوء، وما هي إلا لحظات صامتة هادئة حتى يسدل ستار ويرفع ستار. وهذا اليسوع الأحمر يتعجر من الأرض قوياً غزيراً، وهذا ظل أختي ماكتاً لا يريم، وهذه لعلال تذهب من حوله وتجيء. إن لي بهذه انطلاقات لعهداً، لقد رأيتها ولقد سمعت عبي حديقاً، لقد حدثني عنها أختي في تلك الليلة التي قصيها مروعين حين أهل نخالنا يدهونا إلى سفره الآثم.

نعم إن لي بهذه انطلاقات الحمراء طلال مرتا وأمية ومرة نكت لي كدت نراي لـ صملاً فب أختي عرقاً وهلمأ ورهأً. إن لي بهذه انطلاقات لعهداً وإنني لأعرفها وإنني لأفهم لآل، لحاحها بالريزة على هذا لعل المقيم. لقد أفقت نحسه وتواسيه ونش ما وجدت من أه وجرى، وتسمع منه ما وجد من شقاء، نفس. إن بحوى الطلال لعربة. لبتى منتصت أن أفهمها، لبتى انتظمت أن أستحيل صلاً فأفهم حدث انطلاقات ما مال أختي لا تاحي. أتراها لا نحس محصري، أم تراها لا تعرف كيف تتحدث إلى أو تفهم عني. أنتع لغة أسام إذا متور؟ لقد حدثونا أن سمع في حديثاً يشوه إلى لأحياء ففهمهم عبي لأحباء.

إن لأعرف هذه لعلال. لقد كنت في صلاتي حين كنت رنم لأختي في بعض لصرني أن لأشجع نكت من. وأنها كره صوته لهر ولا نستطيع أن نظهر فيه. وانطلاقات مسحة في لصرني لا يصرف عني مطلع النهار ولا يهدمها عني مقدم الليل. إن انطلاقات لا تهب بوراً ولا تألف طعمة، ولعلها لا تعرف بوراً ولا حسنة وإننا نحن يعشينا

صوت لهار فلا ترى انطلاقات التي تحيد من حولها وتري كل ما تأتي وتسمع كل ما تقول ولعلها ترقى لها. وعنها تسحر ما، ولعلها لا تفهم عما شئت كما أنها لا تفهم عما شئت. يا ليهول إن تدفن ليسوع ليشد. وإن الدم لينثر من حوله انشراً. وإن الحمرة لتصع كل شيء من حولي. وإن هذه انطلاقات لندو مني كأنها قد عرفتني وكأنها تريد أن تقتلي يا ليهول، يا لروع ليدو مني، وإن الصباح يستعجر من في قبلاً الحو من حوى كما يصفر الدم من ليسوع فيصع الأرض خمرته. وإن لعل الدار ليقبض على، منهم الخرع، ومنهم المصمى، وهم يرقون في ويعظمون على. . . !

وهذه أوى، يا ليهول، ما أسمع هذا الوجه وما أقص هذه الصورة وما أشد بعصي لهذا المحصر! إنها لندو مني وإن الدم ليحمد في عروفي لمقدمها. إنها تصع على رأسي حرقه ملبة وإنني لأجد لرد الماء شبتاً من الرحة، ولكن ليصرف عني هذا الوجه فبني أكره أن أراه، لرد عني هذه المرأة فبني لأحشى أن تقتلي. وكيف أحلص منها وكيف آمن محصرها إلا إذا آويت إلى الصمت ولحات إلى الهدوء؟ إنه لعداء أليم هذه الحياة بين اليسوع الأحمر وانطلاقات العطيفة به إن آثرت الهدوء، وبين أهل اسار وهذه المرأة العيصية إن آثرت الصباح. أليس لي سبل إلى راحة من هذا عداء؟ ما أكثر ما طلبت ونححت في طلبها، وما أكثر ما قرب مني وامشعت عني، وما أكثر ما جئت إلى ألى أخرى في إثر شيء أكناه أشد التقي وأحرص عليه أعظم الخرص وأحد في طلبه كل حد، حتى إذا بلغت ألبه كدت ألبه كدت منه وثبة فوذا المسافة بيني

وبينه واسعة وإذا الأمد بينه وبين بعيد ، وإذا أن معدية أشد العذاب
بالاضطراب لمع المصبي بين وحوه أهل الدار التي أكرهها ، وهذه الضلال
التي يؤذني منظرها ويثير في نفسي ألماً لا آخر له . . .

ولكني أستفسر انهار ذات يوم هذبة النفس مستريحة الجسم .
قد ألع الضعف على في أكاد أنتحرك على أني أحد في هذا الضعف
نفسه دعة وأماً فأستعديه وأستلده وأستسلم له استسلاماً ، وأحد في نفسي
دهشاً ليداً حلاً لأن أفتقد شيئاً كنت أخاف أن أحده ، أفتقده افتقاد
السعيد بالحاجة من شر يحشاء . فقد يحيل إلى أن قد بعد العهد بيني
وبين الضلال واليسوع وحوه أهل الدار ، وأن قد قصيت وقياً غير
قصير لم أر حمرة ليسوع ولم أشهد اضطراب الضلال ولم يرفع صوتي
بالصباح ولم يسرع إلى أهل الدار ثم لا أكاد أتمثل هذا كله حتى
أحتهد ما استطعت في أن أدود هذه الحواطر عن نفسي بحافة أن يطول
تفكيري فيها فيكون ذلك استحصراً لما أتمثله من أهول . ودعاءً لما أحد
من السعادة في الإفلات منه . ورفعاً يستار عن اليسوع الذي منه ربح اندم
والذي تغلب به الضلال وأنا أدود هذه الحواطر عن نفسي . وأستسلم
هذا للضعف الذي أحده ، وأود لو نلت كما أن هامة حاملة لا أقدر
على شيء حتى على التكبير . ولكن هذه هي أي تدومني . من وجهي الكتيب
شيء من آتت ارضي ، وهي تقول لي في هذا الضرب الذي يحيل إلى
أي لم أسمع من مدد من بعيد بعد كنت بينه كنها يا آتته فأب برته .
وما أرى إلا أنك ستسرع من نحو اشقاء لينب نقص عني . وسبب
تدني مني . ولينب لم تتحدث إلى آتته اقشعر انفسها بدني آتته ،
واسلرت نفسي كنها . وأحدث عشاقه عرسته نفقني عن عيني . وأحدثت

أشياء تضطرب من حوى اضطراراً وآداني هذا كله أشد الإبداء مني
كنت أصبح لولا أن حسنت صيحتي و حالي ولكن لم أستطع أن
أستبد بدني وأن أسمعها عن أن ترتفعاً إلى عيني لترى عيني مظهر هذه
أساء لرافضة ، وضمت الأم الدائسة في أنفب فوالت ما كنه . ووجدت
في انصرافها عن سروراً وراحة ورضاً .

ولا بد مما ليس منه بد ، فم يكن سبيل إلى أن تمتع أني عن عبادتي
وعادية في ، ولم يكن سبيل إلى أن أرفض لقاءه وأبصر من محضرها ،
وم يكن بد من أن تنصر إلى وأنظر إليها ومن أن تتحدث إلى وأسمع منها
وأزد عن رجوع حديث . ولم يكن ذلك دون أن يثير في نفسي من الموحدة
ويعتد . كك بردي أحبباً إلى بعض ما كنت فيه ، ولم يكن ذلك دون
أن يثير في نفسي هذه المرأة الدائسة لآماً إلى آلام وشقاء في شقاء فترسل
عني يا حسناً وتهدتها حباً آخر . وربما أثار في نفسي عصباً تحنهد
في حسنة في سمع . وأنا أدود إلى البرء وأستبد من لقوة وأستبد النشاط
قلبي فيها ، وآتي بعض الحردت البسرة فأجلس وقد كنت لا أستطيع
الانتقام . ثم ثوب الحياة إلى في قوة كأنما كان بينها وبين مد ، فلما
أرغب أحدث تعمري من كل وجه ، وإذا أن أنهض وأسعى . وإذا
أن أستراد حصاً من آتته عبر قيس وأحد رعة في كل شيء ، ولا في الحديث

وأي تدور حوى . وتتطف في معنو في العناية في ، وود لو نتجد إلى
بعضي سببلاً . ونتمنى جهيداً مشرة للرؤاء تريد بها أن نقص أسباب الحديث
بيننا وبين . ونكتبها لا نقص مما يريد إلى شيء ، وقد أني بين نقصها
ونقصي سرور صفتي وهما لا تنقبان ومع ذلك تدور خاطراً من الحواطر

كان يتردد في معنى تردداً لا يكاد ينقطع وكنت أدفعه دوماً متصلاً
 لأنني كنت أحد في اضطرب نفسي به أما فيه حرف والرعب وفيه بعض
 والحمد لله فقد كنت أسأل نفسي وأريد أن أسأل أي أو أن أسأل بعض
 من حولي عن حاله ذلك الشيطان الآثم المريد أين هو وأين ستقرت به
 ابدار؟ فما أذكر أن صوته سبعة تمثلت لي فيها كان يمثل لي من
 لصور أنه لدة ، وما أذكر أن سمعت له دكراً أو عرفت من أمره
 حراً منذ أجد أن سعى إن ويدت في أعصابي . وما أذكر أن أحداً من
 أهل الدار قد أثار إليه أو ألم يحدث به منذ أحدث أحاطت أهل
 الدار وأشرك معهم في بعض شؤون الحياة . وكنت مع ذلك أر
 أعرف من أمره بعض شيء . أو أكره أن أعرف من أمره بعض شيء .
 أحي هو أم ميت ؟ قلت حريزاً أم أحده لسطار " أمقيم هو في غربة أم
 ذهب في الأرض يلتمس مأواه بعد إزيم وراء هضبة من هذه الهضاب ؟
 ما أكثر ما تردت في معنى هذه الأسئلة وما أكثر ما حزن بها
 صدري وما أكثر ما هم لسان أن ينظر بها ، ولكي كنت أحسها في
 صميري حساً حوفاً منها ومعضاً هذا الرجل الأثيم عن أي م أستطيع
 ذات صباح أن أملك من أمري ما نعدت أن أسكه عالت أي وقد
 حبوت إليها ، مائتاً وأنا أكاد ألقى وجهي عنها أين هو ؟ وما أسرع
 ما فهمت غنى ، وما أسرع ما أحاسني وهي تشير لي بالضممت لقد
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . قالت ذلك وأهملت دموعها غريزة
 سحابة ، ولكن كاءها لم يدع كذاً وحرباً لم يثر حرفي فقد كان بين
 نفسي وبينني سور صغيق . ثم ذهب إلى الواحات فيمن ذهب . . .

علم يأخذه السلطان إذن ولم يهرب ملتصقاً مأواه وراء هضبة من هذه
 الهضاب ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب من أهل القرية ومن
 أهل القرى المجاورة يحملون إلى أهلها ثمرات الربف ويحملون إلى أهل
 الربف ثمرات الواحات . لقد ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وكنت
 نفسه هادئة ، وكان ضميره مطمئناً ، وكان قد نسي إثمه سيئاً ، وكان
 قد انحل عنه هذا الدهول الذي غشبه بعد أن سوى الأرض على صحبته .
 ولم تمثل له هذه الصور المروعة التي تمثلت لي ، ولم تهكك هذه
 الحصى التي أهلكني ، وإنما ذهب إلى الواحات فيمن ذهب يسبح
 ويشترى ، وينحدث مع رفاقه إذا تحدثوا . ويهجو مع رفاقه إذا طوا ،
 كأنه م يأت شيئاً ولم يقرب إنما ولم يسمت دم من أخته بيده .
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب ، وسيعود من الواحات فيمن يعود .
 يحمل وجهه السعير ونفسه الخمرية وضميره الآثم . ويحمل مع هذا كله
 تحارة قد ترصيه وقد ترتضي أهل هذه الدار وسبقونه معتمدين بشهته ،
 وسبقاهم سعيلاً بالعودة إليهم لا بحس إنما ولا بدماء . وسيرتفع صباح
 الفرج مقدمه في هذه الدار ، وسيرتفع صباح الفرج في القرية كلها
 لمقدم العائدين معه من أهل القرية ، سيفضي الناس هنا يوماً كتبها
 أعيد بمنزلة السرور والخير . ثم أنت أنت لأحت شعسه المائتة فلن
 يدكر في هذه الدار أحد إلا هذه المرأة التي لا تسبح أن لا إلا سرّاً بينها
 وبين نفسها . ولا هذه الفتاة التي لا تكاد تذكر بيت حتى يتردى لها
 اليسوع الأحمر والصلال المطيغ به في ذلك القصر العريض فتشوق من أحبوا
 ذهب إلى الواحات فيمن ذهب وسيعود من الواحات فيمن يعود . . .

حرام على أن أراه . وحرام على أن أشهد ما سيثير مقدمه من القرح والابتنهاج . إلى العاحرة عن لقائه . وإلى الحقيقة إن لقبته أن أفصح من أمره ومن أمرنا ما يريد أن يكون سرّاً أبيت هادي قد ذهبت مع من ذهب من أهل المدينة بذلك الوباء ؟ !

وأشرقت الشمس ذات يوم على أهل الدار وارفع العصى ، واعتقد أهل الدار آمنة فلم يحسوها ، ولو أنهم انتقلوها في القرية كلها لما وجدوها فقد كانت آمنة في بعض الطريق قد عبرت البحر مصونة نحو الشرق .

١٢

وإني لأراها في طريقها نحو الشرق مبتلى قلبي رحمة لها وإعحاشاً بها وحوفاً عليها . وأي قلب لا يرحم فتاة عمة لم تكذب تتجاوز من الصبا وقد قدّمت بها الأحداث في لحة الحياة الممتنة بالخطوب والأهوال ، وهي وحيدة ليس لها عون ، قد صفرت يدها من كل شيء ، وفرغ قلبها إلا من هذا الحزن اللاذع الذي يفعمه إعداماً ، وصعجت نفسها حتى عن الأمل ، فهي قد فرت من بيت أسرتها فراراً ، لا تريد شيئاً إلا أن تحصل من هذه البيئة التي لم تكن تستطيع فيها مقاماً ، وتفلت من هذا الشيطان المربد الذي كانت تؤشك أن تلقاه إن أقامت أياماً .

وأي قلب لا يعجب هذه الفتاة العمة التي لم تكذب تتجاوز الصبا ، والتي فرت من أهلها فهي تسمى لا تلتوي على شيء ، نجيلة هزيلة ، مائسة كثية لا تدري أين ينهيها المسير . ولا تعرف كيف بناح لها

الموت ، من لا تفكر في شيء من هذا ، وإنما تنصني أمها مسرعة في المنصني بدفعها عزم لا يعرف الكلال . وبعض البشر لا هوادة فيه . وثقة بالعدل لا حيلة لها .

وأي قلب لا يخاف على هذه عمة لم تتجاوز الصبا تسمى وحدها في الطريق العامة إلى غير غايه ، وقد صحبها الفقر والحاجة والضعف وحدثة السر وشيء من حال يعري بها كل عوى ، ومطمع فيها كل مفسد . وما أكثر العواة والمفسدين في هذه الطريق العامة التي تستقيم وتلتوي من فرق الريف ! لك الله أيها الفتاة الناشئة ! إلى أين تذهبن ؟ ألم تفكرى في هذه

الكوارث والخطوب التي تضمرها الحياة للضعفاء والناشئين . ولضعفات وابائسات حاسة ، وتكشف عنها شيئاً فشيئاً فإذا هي مصدر حصص لنشر والصر . ويسوع غزير اللبسات والآثام ؟ ألم تفكرى في هذه الأوصيصة التي كان يمتلئ بها مسالك والتي كانت تسلي سهارك وتروع لبك ، والتي كانت تمتلئ بأحاديث لأعول وقد نمرقوا على الطريق يعترضون المار حين يمر بهم وقد انقطعت به السبل فإذا هم يصمرون له أهول كل أهول ، ويسرون له البعص كل البعص ، وإذا هم لا يكادون يتسمون ريحه وقد أقبل من بعيد حتى يتحلب ريقهم قرماً إلى لحمه وعظمه ، وحتى تصطرم في أحواضهم علة لا يرونها إلا دمه ، وهو يلعبهم حائفاً وجلاً قد ملأ الخرع قلبه وهرق هبع نفسه . من كان قد حطط الوصية ووعى الصيحة واستعد للقاء العور انتدبه بالسلام فقم أطفاه واضطره إلى السلم والموادعة ، وإذا لم يكن قد حطط ولا وعى ولا هياً نفسه لقاء الخطوب مر بالعول فالتقمه الله نأ ونهجه النهاماً ، وقطع الوسائل

بينه وبين من ترك وراءه ومن كان يعصى للقائهم أمامه . . . ؟

ماذا أعددت يا آمنة هؤلاء الأغوال فإنهم منشون في الطريق ؟
ليسوا سعة كما كنت تتحدث إليك القصص ولكنهم سبعون ، بل
أكثر من سبعين ، بل مئة ، بل مئتان قد انتثروا في الطريق ، منهم من
جلس ينتظر القربة ومنهم من مضى يبتغيها ، منهم من يزر ضاحياً
ومنهم من استخفى في الحقول واحتبأ في المزارع ، منهم من يظهر مظهر
العول كريهاً مخمياً لا يكاد تلمعه العين حتى يمتلئ القلب منه فرقاً وحتى
تندفع العريرة إلى تفاته ومحاولة احتسابه والخلاص منه ، ومنهم من يظهر
مظهر الرجل الوديع أو الشاب الرقيق تلمعه العين فيطمئن إليه القلب ،
وتأس إليه النفس بعد وحشتها ، ثم لا يجد منه إلا الحزن إلى لا عدواً
ولا يعطى عده الوثيق به إلا بالشر والكر والوار . منهم من اتخذ زى
الرجل ، ومنهم من تحدى المرأة ، وكلهم عول قد هيأته الأحداث
لأمثالك من العنيت نصيبات البائسات اللاتي مذنبن الأسرة أو
احشبن الخطوب من أصولهن فهن مشردات يستقلن الحياة جاهلات
بما عافلات عنهن ، ولجأه يلعب بهن ، تقلعهن من مكان إلى مكان ،
وتنقلهن من شأن إلى شأن ، حتى يسبى من العشاء إلى العول الظاهر أو إلى
العول المتكبر ، ومنهم من عريسة لهذا أم لذاك ، بعض لمار وأخرى ،
وبعض نجس وحسب ، بعض المرحض واشفاء ، ويلقى الأم دائماً .
وقد تلقين الموت أحياناً . . . ؟ !

م عك آمنة في شيء من هذا حين نصفت مع الصباح من بيت
أسرها فما يعصى السهم ، ومضت أمامها متلععة لا تحس جهداً ولا مشقة ،

بل لا تحس حركة ولا نشاطاً ، بل لا تشعر بأنها تعصى كما تعصى السهم
لأنها لم تكن تفكر إلا في - حتى قد أفضت منه وهي تريد أن تبعده عنه ،
وفي حرية قد دفعت إليها وهي تريد أن تعصى فيها انهماكاً

هي تعصى وتعصى لا تقف ولا تستع من يمين ولا شمال ولا تلتفت
إلى وراء ، كأنها بطل من أبطال هذه القصص التي تتحدث بها الأحداث
والأمهات ، قد مضى لعبته ووعى نصيبه الصبح ، فهو لا يلتفت
بحاجة أن يدركه البوار من حول وجهه عن طريقه المستقيمة أمامه ، وأما
تسمى مسرعة تستقل بوجهها المشرق الكتيب وجسمها انصبل نشيط
صوه الشمس ونسيم الصبح واستبساط الحياة والأحياء ، وما تزال كذلك
حتى يعمرها الصبح وحتى تعمرها الحياة التي تشعلت من حولها ، وإما
هي مصطرة بحكم العريرة وتحكم هذا الإغواء الذي أحد يدرك جسمها
الصغير شيئاً فشيئاً إلى أن تعصى مصطه وتسمى هوياً ولا يكاد يصفى
النهار حتى تسع البحر وحتى تمره . ولا يكاد يتقدم النهار نحو العصر
حتى تكاد قد بلغت مأسها وأنت من حدت العنايين ونهت إلى قرية
من القرى دلت إليها تريد أن تسع عندئذها حصاً من راحة وشيئاً من
طعام وأن تنفق حنك الليل .

نعم إن لأزاري في هذه الطريق وجبة شرباية لا أدرك إلا بتسبي
المسحبة الشابة . وإلا جسمي السجيل المديتن ، وإلا ثياباً ناسه أو كالدابة .
وأنا مع ذلك لا أحرص على تركت ولا بمن تركت ، وأما أن
مفسدة عنه من الأمر ، ولا يمر أن مفسدة عنهم من السهم ، بل هو
الذي في الأمر ويذكر هذا الشرط الذي يسميه حب الحرمة

وادی پکنما اُجباناً من اُمرنا شططاً . اُکت حاشة . . . ۴ اُکت
آمة . ۴ لا آتری : و زنه کده . اُشتر بالاکمیرین جمعاً بتعاقبات عل
قلبی کما بتعاقب الیل والنهار علی الارض وما علیها

كُتِبَ أَصْحَفُ إِلَى أُمِّ لَرِ أَرَى أُمِّي وَلَرِ أَسْمَعُ صَوْتَهَا . وَلَرِ أَرَى أَهْلَ
الْبَارِ وَأَشَارَكُهُمْ فِي شَيْءٍ . وَلَرِ أَتَنِي ذَلِكَ الْجَلَّ الشَّرْمُ وَالْعَمْسُ
الْمَحْدَرَةُ وَنَسَبُ الْعَبِيدِ . وَلَرِ أَحْبَبُ لِعَلَطَتِهِ وَلَرِ أَحْمَلُ بَقَرَتَهُ إِلَى وَتَرْصِيهِ لِي .
هَيْمَتِي هَيْبِي أَمَّا وَهَرَوَا وَيَسْمُ لِي الْعَبْدَةُ عَنْ أَهْلِ الْقُبُورِ وَأَحْصِي
بِالْأُمَامِي وَالْأَمَّ . وَأَحْدِي دَهْشَ قَهْةٍ وَشَجَاعَةٍ وَصَبْرًا ، فَأَعْصِي لَهَا . كَيْ
الْإِعْمَاءِ وَلَا يَبْأِي بِلِكَلَالٍ نَمَّ كُتِبَ أَذْكَرُ أُخْتِي وَلَا سَمَاءَ بَعْدَ أَنْ عَرَبَ
الْمَحْرُومَاتِ الطَّرِيقَ تَحْصِيطَ عَنِّي ، وَأَحْدَتِ أَحَاوِلَ أَلْأَعْرُفِ أَسْ أَلْحَرْفِ
بِأَحْدِلِهَا الْمَحْرُومَ عَنِ الْحَدَادَةِ إِلَى دَهْشَ الْقَهْةِ الْعَرِيشِ الَّذِي أَعْرَفَ بِهَا عَهْدَهُ

كَبُّ أَرَكْرُحَتِي هَا أَكْدُ أَنْتَ دَكْرَهَا حَتَّى شَوْرَطْتَهَا أَذَى وَهَذَا أَرَا
أَرَاهَا مَثَلُهُ كَمَا يَعُودُ أَنْ زَاهَا مَدَّ تَرْكَا لَدَسَةِ ، وَإِذَا أَرَاهَا
أَنْ أَسْمَى إِيَّهَا وَأَنْ أَمْسَا يَدِي وَأَنْ أَحَدَ مَعَهَا فِي الْحَدِيثِ ، وَإِذَا نَا
أَنْتَهُ لِلْحَقِّ وَأَنْتَ خَصِيْمَةُ الْوَقْتِ ، وَإِذَا يَدَايِغِ الْخَرْدِ سَفَحَرُ فِي عَيْنِي
وَإِذَا الْخَرْدُ يَجْرِي مَعَ دَمِي ، وَبِذِي حَسَمِي كَيْتَ نَارٍ مَحْضَرْمَةٍ بِالْعَةِ شَرِيحَةٍ ،
وَإِذَا دَمُوعِي تَهْمُرُ عَنِ حَدِي ، وَإِذَا أَنْ مَحْضَرْمَةٍ فِي أَنْ أَرَاهَا
نَاحِيَةٍ مِنَ الْظُلْمِ لِي لَأَكُنِي عَنِ مَهَلٍ عَنِ عَرِّ مَرَأَى مِنَ الْبَاسِ

ثم أهدم مشاعه لسعي وإيا أختي ما يرى ما وراءه
 كـ أراها أهدم هذه صديق وضييق ما وراءه
 من حول لا تترك أحبك من الأهل أم تتركه من الأهل
 بختة وحفظ وتسمع من يرى تتركه وحفظ من الأهل

أد على ذلك كنه ماضية تتقدمي القري و...
تخلف هؤلاء حياً وأولاداً سيلاً...
في البيوت مرة أخرى...
وبتعد...
مضطربة دائماً بين أهلي للدين هزئت منهم هزاً...
بلاي...
وأما...
...
...
...
...

[illegible]

هذه الدار هم في الخروج إلى ماضي سبيلاً . ولكن ما خطب أهل الدار وما خطبي إلى سائوني أين كنت ؟ كيف أجيبهم ؟ . وهم أجيبهم ؟ أقص عليهم حديثي كنه أم أضويه عنهم طيلاً ؟ بل ما خطب أهل الدار وما خطبي إلى رأوني عما يكررون ثم أبوا أن يشتحو لي باسم وأب لقي في هذا الحب ؟ يلتقون به من الرصد والعصف والابتسام ؟ ما خطب حديجة وما خطبي إن رأيتني فأعرضت عني لأنها رأت من فتيات الريف أو من فتيات المدينة من يقوم معها مقي وبليها كما كنت أليها ، ويشاركها في الخلد ويحب كما كنت أشاركها في الخلد واللعب ؟ أين أذهب إذا كنت في هذه الدار ، وإن من أخا دعي من أعول إذا تنكرت أهل هذه الدار ؟

١٣

كلاهما بل هذه الدار كما عرفتها رقيقة أليفة ، معربة مطمعة ، لا أرطاب ولا تصد رسماً ، ولا تتحهم لمر ولا تسر عصف وإني لأراه من بعد فأسرع بها الخطوة كأنما أدق إليها دفعة أو كأنما تدور ملحة فاستحيرت بها . وإني لأرى دحاناً تسر عن ريش في البحر ولا أشد من أن يصرر عني في الصباح وإنما أعطل الفجح من حواء من الحسم بدني وزيد ، وأصيح ما يقولون ، وأني أشاركهم بما يابسون من حركة ، وأحد بهم . يلقطون به من حديث . وإني لأدور من الدار وأني . . . هذه الدار غرفة حديجة وما غيرها من ألفة وأدب ، وإنما أنس حديج نفسها قد حلت إلى بعض ما كنت أليبه به ، أو عكسه .

على درس تستظهره أو كتاب تنظر فيه ، وكأنني أشاركها في اللعب أو أشاركها في الامتطهار أو أسمع بعض ما تقرأ . وإني لأدنو من الدار فأمثل حياة الدار كلها كأنها قد عمرتني وكأنني قد رجعت إلى مثل ما كنت منذ أشهر حراً من هذه الكل ، وشعاعاً منتشراً مستفيضاً في هذه الحياة التي تملأ الدار حركة ونشاطاً واضطراباً .

وهنا هذه أطلع باب الحديقة فلا أنردد في ولوجه ، وأمضي أمامي مصممة كأنما أعود إلى الدار بعد ليلة من تلك الليالي التي كنت أقصها مع أمي وأختي في ذلك المنزل الصغير . وإني لأمضي كما تعودت مسرعة لا أبوي على شيء ، وإني لأصعد في السلم لا ألتفت إلى عيني ولا إلى شمال ، وإني لأطلع غرفة حديجة فأدحها وأصادف سبيني وصديقتي عاكفة على كتاب تنظر فيه . ولكما كنا نلتقي على الصبح والعش قالنا الآدلا نضحك ولا نعت . ١٢ . أما هي فواحة داهلة قد أخذت على غرة ، وأما أنا فغرة في البكاء .

ثم هي تسألني أين كنت ؟ ومن أين أنت ؟ وماذا صنعت في هذه الوقت الصويل . . . وأنا لا أحب وأني إلى أن أحب بغير هذه النعوج أي بهجر . وهذه أكرمت لي تمحور ، وهذه السهول التي يتردد في حلق متصل بعضها ببعض رداد شدة وشدة حتى يكاد ينهي في إلى أربة من هذه الأرباب التي تمسك أعصاب السوء حين يلع طين البكاء . . .

وصديقتي وصديقتي قد أمنت عن فتلف في وترهم في ونهون على بعض ما أجده ، وإن كانت لا تعرف شيئاً مما أجده ثم يسمع

شقيق وهذا صيدة لبيت قد أقيمت ، وإذا هي ليست أفضل دهنًا ولا وحملاً من أسناتها . ولكنها تصرف نقابة على صرماً شفقة عليها من هذا .
 شبيهة لبيت قد يؤدي نفسها الشبه الشبهة ، ثم تدعوني إلى أن أسعها ،
 ثم تهدي روعي وتلطف لي في الحديث وتساألني عن أمري فلا أحبها
 شيء ، أو لا أكاد أحبها شيء ، إنما هي حل متقطعة عارفة في الدموع
 فيها ذكر للرحيل على غير موعد ، وفيها ذكر للقرية ورؤيتها أهلها فيها ،
 وفيها ذكر لمصاب عظيم قد ألم بها لم يكن تنتظره ولا يفكره فتدنا
 أختي . وفيها صديق بحياة لقرية في دنت الحزن المتصل ، وحين إلى لسان
 الدرس م أن في خدمتهم إلا حبراً وبرا ، ثم فيها ذكر لعودة السمرقة في
 العزيمت نفوسه مسوية الخوفة ، ثم انهمار للدموع وتكدب على مسبق
 أقبل بها وقد سبها كأي أشفق أن تردني رداً أو تدفعني عن الدار دفعا ،
 ولكنها حذرت علي ، رفيقة لي ، تقيمي ونهضي وتأمرني أن أذهب إلى
 حيث أصبح من أمري وأسأف على في الدار ، كأن لم أفرقها
 شهراً ، وكأن لم أفرقها محبة في غير امتندان ، وكأن لم أرد على أن
 عب يوماً وأياماً ثم عدت إلى مثل ما كنت فيه . وأنا أذهب إلى
 حجري فارد كما تركتها لم يشعلها أحد ، ولم تسكها خادم بعدى .
 ثباتي فيها كما تركتها وأدواني فيها كما عدتها لم ينقل شيء منها ولم يحول
 عن مكانه . ثم ما هي إلا أن أتت الخدم ويلقوني بشيء من الدهش
 والوجوم ، آخذ في بعض الحديث . ثم أطر فلذا كن شيء . قد استقر
 وهذا أنا واحد في الدار من أهل الدار كأن لم يكن بيني وبين الدار فرق
 ثم أعلم ما أعلم من حزن حادثة على ووجدته في ، وبأنها على أهلها

أن يتخسروا لها حادماً غيري ونزول أهلها عند ما كانت تريد .
 ثم استأنف الحياة مع السادة والخدم كما كنت أحياها من قبل .
 ومع ذلك فما أكثر ما لقيت من الخطوب ، وما أشد ما احتملت من
 الآلام ، وما أطول ما ألبست بعيلة عن الدار من الشهور ! وكيف
 لا تطول هذه لأشهر القصار وقد كان فيها من الأحداث ما كان ، وقد
 لقيت فيها من الشر كل ما لقيت ، وقد واجهت فيها الموت ، وقد عانيت
 فيها المرض ، وقد تعرضت فيها للجنون أو لثل الجنون ، وقد تعرضت فيها
 لكل ما تعرضت له من ألوان الفتنة والمحنة والخوف . . ؟

إن أهل الدار لا يعلمون من هذا كله شيئاً وهم من أجل ذلك
 لا يكادون يشعرون بأني فارقهم أو غبت عنهم ، ولكن أنا أعلم من هذا
 كله ما أعلم ، وأنا من أجل هذا أشعر بأني قد فارقهم وقتاً طويلاً ،
 أو أطول مما يظنون وأطول مما أظن ، وأطول مما يحسب الناس . إنهم قد نسوا
 رحلتي وسوا عودتي وانصرفوا إلى أمرهم لا يفكرون في ولا يسألون عنى .
 ولكني أما لم أنس من هذا شيئاً . بل أنا أشعر شعوراً غريباً ، أشعر
 أنني قد أخذت من أهل الدار فتاة فلفتها هناك في قرية بعيدة
 من قرى الريف تطلها هضبة من هذه الهضاب التي تلى الصحراء ، ثم
 رددت عليهم فتاة أخرى لا يعرفونها ولا يعلمون من أمرها شيئاً . أخذت
 مهم آمنة الضاحكة في أكثر الوقت ، الباسمة دائماً ، أخذت منهم آمنة
 المرأة الساذجة التي تؤثر اللعب أو تكاد تؤثره على كل شيء ، والتي
 لا ترى في الحياة إلا لعباً ، والتي تحلم وكأنها تلعب وتدرس وكأنها
 تلعب ، وتتعلم من الخطة والدرس ما تتعلم وكأنها تلعب ، لا تعرف

اللم ولا تمشطه ، ولا تعرف أن للحياة أثقلاً وتكاليف وإعماً تؤمن بأن الحياة ابتسام للنهار إذا أشرق ، وابتسام لليل إذا أظلم وابتسام للإعلاء النهار من نشاط ، وابتسام لما يملأ الليل من أحلام ، أحدث منهم آمنة التي كانت تتشأ وتتمو كما تتشأ هذه الشجيرات في الحديقة وتتمو ، فيها نصررة ولين ، وفيها بهجة وجمال .

أحدث منهم آمنة هذه فخرقت نفسها تمريقاً ، في الطريق حين كنت فاحشة إلى العرب تركت بعضها في بيت العمدة الذي صيغما حين سمعت الحديث أخنى وحين سمعت الحديث أولئك النساء ، وتركت بعضها لهذه الأشباح الحمراء التي كانت تترامى لنا حين كنا نتحدث على سطح الدار أو حين كان يمحى بنا الحملان في الطريق الصامتة وقد تقدم الليل وقتل ، ثم تركت أكثرها في ذلك العشاء العريض فسال مع الدم الذي سال ، ودفن مع الحثة التي دفنت وسوى عليه معها التراب ثم صب عليه معها الماء ، ثم تركت صائرهما بها لتلك العلة التي ذهت بما نفي من نفسي وإن أنقت على بقية صنيلة من حسمى أحدثت الحياة تعود إليها بعد الرء قليلاً قليلاً أحدثت منهم آمنة هذه يعرفها على هذا النحو بين الملائكة والقرية ثم رددت عليهم آمنة أخرى قد شبهت في بعض ملامح الوجه ، وقد تشبهها فيما نفي من سدل القدمة ، وقد تشبهها في طبيعة الصوت وبعض الحركات ، ولديها تحدثها بعدد في كل شيء . رددت عليهم آمنة الخربة دائماً ، الوجه في أكثر الوقت حتى كأنها ملهء عافله رددت عنهم آمنة التي رأت الخير بشعاً وإلهم عريان والحرم مكرراً ، فلاتت نفسها من هذا كله وإذا هي سبئة الطر بكل إنسان ،

وإذا هي شديدة الإشفاق من كل شيء ومن كل إنسان ، وإذا هي عاسة للنهار إذا أشرق عابسة لليل إذا أظلم ، وقد اتحدت لنفسها من طمة انين احناكه ثوباً كثيفاً ضامياً مأسيفته عليها إساغاً وحالت به بينها وبين كل نور وأمل وابتهاج وابتسام .

نعم ، رددت عليهم آمنة هذه التي لا تمسك الدموع إلا ريثما ترميها ، ولا تسط الوجه إلا ريثما تمضه ، ولا تقبل على شيء إلا ريثما تتصرف عنه ، ولا ترى في اللعب إلا ثقلاً ، ولا ترى في الحنمة والدرس إلا عناء وجهداً . ويح أهل الدار ! أيقبلون مني هذه الفتاة التي رددتها عليهم ويتسلون عن تلك الفتاة التي أحدثها منهم ؟ ويحي أنا من أهل الدار إن لم يهرهوني ولم يألهموني كما عزموا تلك الفتاة وألموها ! ولكنهم قوم كرام لا يضيقون لي ولا يهزرون مني ولا يلقونني إلا بالعناية والرعاية والعطف . أولم أتحدث إليهم بذلك المصائب العظيم الذي قد ألم بنا فلا قلوبنا حراً وبؤساً ؟ وإذن فهم يهزوني ويأسون جراح قلبي ، وهم لا ينظرون إلى كما ينظرون إلى حادم يجب أن تعمل أو إلى رفيقة يجب أن تعين فتاتهم على ما في الحياة من جد ولعب ، وإنما ينظرون إلى كما ينظرون إلى فتاة بائسة قد آوت إليهم فهم يؤوونها مكرمين لها مشفقين عليها ، يؤثرونها بالرحمة والراحة والمهلوه .

وخديجة . . . ويح خديجة ! ما كنت أحسب أن حياة نشأت في مثل ما نشأت فيه من نعيم ، ودرجت على مثل ما درجت عليه من ترف وتعودت ألا تمش إلا فرحة مريحة ، ما كنت أحسب أن هذه الفتاة تعرف كيف تصل إلى أعماق هذا القلب الحزين ، وكيف تبلغ

يعرّفها ما لم يكن يد من التحربة الطويلة لعصره لبلوغه بالعثل والإرادة
لأنها تضحني في غير سؤال ، إنها لترحمني في غير تكلف ، إنها لترني
لي في غير كبرياء ، إنها لتصرف لي عما ألفت من فرح ومرح ومن
دعائه ولعب ، إنها لتحدث لي حدث الفتاة العاقلة الرشيدة ، إنها
تتطلي عن همي عما تقص علي من أمرها أثناء عييتي وعما تقرأ علي مما
قرأت أثناء هذه العية وعما تقرأني مما لم أشاركها في قراءته ، إنها لتفتح
لي أبواباً ما كانت لتخطر لي على بال . إنها لتسني بساً عجيب لم أهمه
إلا بعد مشقة وجهد وتكرار^١ تنبئني بأما قد أخذت تتعلم لغة أخرى
نسميها الفرنسية فلا أهم منها شيئاً ، لغة أخرى ! وكيف يكون ذلك ؟
إني أعرف أن هناك لغة الريف التي كنت أتحدثها ، ولسة القاهرة التي
تتحدثها خديجة ، ولغة ثالثة نقرأها في الكتب فلا معجز عن فهمها
وإن وجدنا فيه بعض العسر ، فكيف توجد لغة أخرى ، وما عسى أن
تكون ، وكيف يتعلمها الناس ؟ إنها تظهر لي كسأ ما كنت أقدر
أن أراها ، وإني لأتظر هذه الكتب فلا أفهم منها إلا بعض الصور ، وإني
لأحاول النظر في الحروف فلا أعرف لها أولاً ولا آخرها ، ولا أعرف لها
رأساً ولا ذنباً ، وإني لتضحك في رقتي ، وإني لتحس شيئاً من الكبرياء
لأنها تعلم ما لا أعلم ، وإني لتحاول القراءة في هذه الكتب فتطلع من ذلك
ما لا أطلع ، وإني لترحم بعض ما تقرأ فأفهم منها ما تفهم بالعربية
وأدهش ويتشني في الدهش إلى أقصاه . . .

وهذا أستاذها السوري قد أقبل وإني لتفاه فيحدث إليهما وترد عليه

هذا الذي لا أهمه فأزداد بها وبه إعجاباً وفتنة . وهذه خديجة تكبر
في نفسها وتكبر في نفسي وتقوم مني مقام المعلم ، وإذا هي تقرأني
هذه الحروف التي لم أكن أقرأها ، وتعلمني هذه اللغة التي لم أكن أعلمها ،
وإذا أنا تلميذة لها في الصباح وتلميذة معها في المساء ، وإذا المعلم يارع
وإذا التلميذة على حط من دكاء ، وإذا أنا أحد في هذه الحياة الخليفة
وفيها يقرأ معاً وما تعلم معاً عراء أي عراء ، وسبباً أي نسيان ؟ وإني لأستار
تلقى شيئاً فشيئاً بيني وبين هذا الماضي البشع القريب ، وإذا كل شيء
في هذا الماضي ينمحي قليلاً قليلاً إلا شخصين اثنين لا ينمحيان
ولا ينصعلان ، وإني يرتسان في نفسي ارتساماً قوياً ويتحلان أمامي
تمثلاً متصلاً ملحاً ، وهما شخص أحني صريعاً يصح من صدرها الدم
في الفضاء العريض ، ويغمغم فيها بكلمات لا أفهمها ، وشخص ذلك
المهندس الشاب الذي أعرفها ودعها دعماً إلى ذلك الفضاء العريض
الذي صرعت فيه .

نعم ! ذلك المهندس الشاب الذي سواها ودعها دعماً إلى ذلك الفضاء
العريض . . . ثم بعد ذلك لقد مسحها الحياة . ولقد قصي عليها بالموت .
وهي دعت سائفة من لغة الحياة وتبعها بلا هذه اثرات الحلوة التي
حسب في هذه الدرة نائمة من درنا عبر بعيداً إلى هذه النار دُفنت

حين هيئت من أقصى الريف ، فأخذت تعرف الحصاره ونائمها وتلو
من طياتها مرقى لها الميث وقد كان عيباً ، وحب إليها الدهر وقد كان بعيداً .
فيا عرفت الرف واطمأنت إلى النعم ! ولم تك تشأ وتسمو حتى
مدت لها الحب ذراعين فيهما النعم ولؤس ، وفيها الرحمة والمذاب .
فأسرعت إلى ما كان يترأى لها من ذلك جاهلة له ، مفتونة به ، منها لكة
عليه ، ثم انصرفت كارهة عما ملأت ، وما أدرى ما كان يجرها ويمر
فزادها تمزيقاً حين كانت نقص على أساءها وتحدثني بأحاديثها . أهو
النعم على ما قلعت من ذنب واقترمت من خطيئة ، أم هو الأسف على
ما فارقت من لذة وحرمت من نعم ؟ وما أدرى ما الذي كان يملأ قلبها
فرقاً ووعباً حين كانت تترأى لها تلك الأشباح الحمراء أهو الموت الذي
كانت ترى تدبره منكراً بشعاً وسعماً صارحاً ملحاً ، أم هو اليأس الذي
كان يقطع الأمانيات بينها وبين هذا هو من الشباب ، وسقى بينها وبين
الحب ولذاته وآلامه حوائل وموانع لا تسيل إلّا بالدمار ؟

نعم ! هذا المهتمس الشاب القدر ارتسم شخصه في مدى تمام قوياً
ملحاً ليس إلى محو من ميمن وأتم كت أرى أحتي في الأرم لها
كانه الظل ، بل كأنه ظل من هذه التحلات الحمراء التي كانت تلامسها
حين كت أراها أثناء العلة وحين كانت تعرض لي في نظري . بل لقد
تفرقت عن أحتي كل هذه الظلال وانجذبت المحباء ، ولم يبق معي إلا هذا
الظل الذي لا أكاد أراه حتى تصطرب نفسي اضطراباً عيباً ، وحتى يثور
في قلبي شعور قوي مختلط عريب شديد التعقيد ، شعور فيه الحزن ، لرغبة ،
وه الغص ، وشيء يشبه الحب ، أو حب الاصطلاح على أقل تقدير .

من هذا الشاب ؟ أو من عسى أن يكون ؟ وكيف يمكن أن يكون ؟
أي شيء فيه أغوى هذه الفتاة اليائسة ودفعها إلى ما دُفعت إليه ؟ ما عسى
أن يكون حظي منه إن لقيته ، وأن يكون حظي مني إن لقيت ؟ أو أحبه أم
أبغضه ؟ أبحني أم يبغضني ؟ ما هذه العواطف التي أصلحت على أحتي أمرها وأصلحت
علينا جميعاً أمرنا ، وقضت على أحتي بالموت وبمعت علينا جميعاً لذة الحياة ؟
خواطر كانت تملأ قلبي إذا أصبحت ، وكانت تملؤه إذا أصبحت ،
وكانت تلح عليه بين ذلك فلا ترد عنه إلا في شيء من الجهد والعنف
حين تلح على حديجة في الحديث أو في القراءة أو في مشاركتها فيما كانت
تحرص على أن أشاركها فيه من الدرس والانتظار .

خواطر كانت تملأ قلبي في ليلظة ، وكانت تملؤه في النوم ، وكانت
تصرفه عن كل شيء إلا عن هذه القصة التي سمعت دمها في ذلك القضاء
العريض ، فدانت الموت وذهب نفعها إلى السماء وهوى جسمها إلى
الأرض وهيل عليه التراب ، وإلا هذا الشيء الذي ما زال يندو ويروح
مرحاً مرحاً . معتبلاً مستشراً ، تسم له الحياة وتسم هو للحياة .

ليبي أدرى أيدكر صحبته تلك أم قد نسيها وليبي أدرى أنا ذكرها
إن ذكرها في شيء من الرمن بها واعطف عليها والحبس إياها ، أم قد ذكرها
إن ذكرها في أعراض مرعد ونعقد لم أدرى ! وأين يكون هذه القصة
من نسيه . وما أكثر الغيابات في نسيه ! لقد كان بالقياس إليها كل
شيء . ولم تكن هي بالقياس إليه شيئاً . لم تعرف غيره وعرف هو غيرها
كثيرات . لم تدق لذة الحياة إلا من ذراعيه ، وما أكثر الموطن لي داق
هو فيها لذت الحياة ! وما أكثر ما داق من ألوان اللذات وما بلا من
صوف السيم ! وليبي أعرف كيف يلقي ذكرها إن ذكرت له . أيسم

لصورتها أم يلقاها بالعروس ! بل ليتني أعرف كيف يلتقي السأ البشع المروع
إن ألقى إليه : أيعجزه أن يعلم أنها ذاق الموت وأنها ذاقته لأنه هو قد دفعها
إليه ، أم يقع هذا النبا من نفسه موقفاً يسيراً فلا يثير في قلبه حزناً ولا أسماً
ولا يسلط على نفسه لوعة ولا فزعاً !

وكنتك امتلأت قصي بهذا المهلس الشاب ، حتى لقد كنت
أتحس هزرا منه فلا أظهر به إلا في جهد أي جهد وعناء أي عناء ، وحتى
لقد أنكرت قصي وأنكرت من كان حول من الناس والأشياء ، وأنكرتني
من كان حول حين طال عليهم ما كنت مفرقة فيه من الوجوم والذهول ،
إلا عطيحة فإنها لم تتكفني ولم أنكرها ، وإنما مضت فيها كانت فيه رفيقة
في عطلتها علي ، تعزيني وتسليني وتفتن في ذلك ما وسعها الاثنان . وأنا
أعرف لما هذا طاحله وأقدره وأرد عليا بعض ما كانت تسدي لي من
جميل ، فأنصرف إليها حين ألقاها من هذه الخواطر ، ويفرغ قلبي لما
أسمع من حديثها ولما أشاركها فيه من درس ، ولكن لا ألبث أن أعود إلى
ما كنت فيه من وجوم وذهول . وتحس هي مني ذلك فتصرف عني
بعض الشيء وتركني لما أنا فيه ، كأنها تفكر أن أجد في هذا الوجوم
والذهول لغة وراحة وأطمئناناً .

وما تزال هذه الخواطر تلح علي وتشتاثر في حتى تستحيل إلى شيء من
الرغبة القوية الملحة في أن ألقى هذا الشاب فأسمع منه وأتحدث إليه . وأنا
أتلصص أحباره وأتبع أسرارته وأتلفظ ما يبنى عنه من حديث . ولم تكن
داره بعيدة من دارنا ، وكأن الظروف قد اتصرت لي فتهيأت لي أن أرى
ذهابه وحيته من نافلتني حين يعدو من داره أو يروح إليها ، من هذه
النافذة التي طالما كنت أبادل أختي منها الإشارة وأسارقها منها بعض

الحديث . من هذه النافذة التي لم أذكرها ولم أدن منها حين عدت إلى
الدار ، وإنما مكثت أياً وأساسيع أحملها جهلاً وأحملها إهمالاً . ثم حطرت
لي فجأة وهزض علي مكانها فرضاً ، فإذا أنا أدنوها وجلة ، أفتحها حرعة
محروقة ، أريد أن أقف إليها لأتمثل فيها صورة هادي ، داهية حائية ،
منعوبة بما كانت تنمي به من أعاني الريف ثم أعاني المدينة . ويرى لأحد
موقف من النافذة في الأيام الأولى فلا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً ، وإنما هو
قلب ينمطر ، ودموع تنهر ، وصورة لأختي لا تأتي من الدار ولا تمر
إلى ما بين يدي ويب من طرفي ، وإنما تأتي شاحنة حزينة من قلبي هذا
الأسف الحزين . وأنا مع ذلك أطلب الوقوف إلى النافذة وأكرره . وأدنو
مها كلما أتيج لي لدنو في نهار حياً وفي الليل أحياناً . آلتها وتألقي ،
حتى أصبح وقوف من وجلومي إليها عادة طبيعية من عاداتي كلما دحلت
الحجرة وأعقت بابها من دوني . والأيام تمضي وتتبعها السبيل ، وإني أنا
أقف إلى النافذة وأجلس إليها فلا تنهر الدموع ، ولا تتمثل لي صورة
أختي شاحنة كئيبة ، وإنما أنا أرى أمامي وأنظر ، فإذا صورة أختي كما
كنت أعرفها تذهب ونحى . صوت أختي يتشر في الفضاء فيمضد فرحاً
ومرحاً وسهدة وسروراً ، متممة بهذه الأغنية التي طالما كنت نردها
بصوتها الرحيم لمحتلي العذب فيحسها الهواء إلى العوس كأنها قطرت السدى
آه يا دينا من عرامه يا نا وإن كنت أحبه ما عني ملامه

وما كنت أعهم من هذه الأغنية إلا ما يفهمه الناس همه ، إن كان
الناس يفهمون من شيئاً ، فهي شائعة دائمة في المدينة وفيها حوض من الحصى
تسمعها في كل عرس وتسمعها من كل امرأة ومن كل فتاة .

صبة نحاول العناء أو تقصد إليه أما الآن فإني أنغل أحتي كنيبة حربية
 يائسة ، كأنها ظل شاحب ليس له ثبات ولا استقرار ، وإنما هو هائم
 مضطرب يصدر عنه صوت صئير يحيل كأنه نضدي ، وهو ينشر في
 الجو انتشاراً بملأ انصبوب لوعة وأسى ، وهو يحمل هذه لأعية كأنها شرر
 النار لا تمس شيئاً إلا أحرقته إحرقاً ، ولا تلغ شيئاً إلا فرقته بمرقاً ١٥
 مالي أسمع هذه الأععية فأفهم منها ما لم أكن أفهم ، وأعلم منها ما لم أكن
 أعلم ، وأحس منها ما لم أكن أحس ، وأستكشف فيها من المعاني والمراي
 والأغراض ما لم يكن يخطر لي من قبل على بال ؟

إن هذه الآفة التي يرسيها نضدي الحبيب ممتدة صبيه لا تكاد
 تثبت ولا تكاد تنهي ، لتثير في نفسي عواصف لم أكن أعرفها ولم يكن
 لي بها عهد ، وإن هذا النداء ليصور نفسي الأبي كما تصور نفسي
 المستعدة ، وكما تصور نفسي بأش من لير حين تكرر ، وإن هذا
 الاعداء ليصور نفسي اهدام في غير احتما ، دافعة ، ولا يدم على
 ما كان ، ولا يهدر إلا هو كثر وره تصور نفسي حرق هذا حاد
 الأثم الذي جمع الأععية تحت مرة وره في يديها ولم يفهمها ولم يرى
 هذه الآفة من وراءها ، ولم يفهمها من وراءها ، ولم يفهمها من وراءها ،
 لأنه
 الحب
 الإثم ، وما يكون فوق العقاب .

نعم ، وإن لآسمع هذه نضوت صئيرين سحيل ينشر هذا العناء ، أياك
 الحزين ، وإن تصور هذا انهم من الشاب قد برع حاله حتى أصبح هذه

لا تنق وسحراً لا يقاوم ، وقد رقت حديثه حتى أصبح شركاً يصيبه القلوب
 وحالة تحنس النفوس ، وقد لظمت حركاته حتى لم يبق إلا
 ميل . وإن لأتظر فإذا هذه الأععية تثير أسي صوراً ثلاثاً ، صورة هذا النقي
 الحليل الزائع مغري ، لإثم وبدفع إليه ، وصورة هذا الشيطان الآثم المريد
 يأخذ ، لإثم ويعاقب عليه ، وصورة هذه الحنة اللائبة البائسة تحت عبد الإغراء
 المصني والمفتاب المنسي . ثم أظن إلى هذه الصور فأسأل نفسي أين أنا منها ؟
 أما حالي فمضى أنقصه بعضاً لا حدة له ، ولو صمرت به لمرفه تمريقاً .
 وأما أحتي فإني أرى لها رثاء لا حدة له ، ولو لم صمت ارددت إليها الحياة .
 وأما هذا المهمل من الشاب فإني أرى بكاء مكدلاً ، وهو مكان
 المعصية العنود أم هو مكان انهم المائدة ١٦ له النار المصطارمة ، وإن الفرائض
 التي تنهوا إليه وتكتم بها ، وأكن عزم بأه بحرقة مهلكة ، لأعلم
 من علم هذا انهم من الشاب أكثر مما علمت ، ولذكور لي هذه مكان
 لم أكن أقدره . لأظنن هذه سار أو لأحذر من بينها المصطارم ؟
 وبعد ذلك انوف أهدت أسبق أن حزين ، وصوته بحجة
 وإن مقامي في بيت الأمير موتيت ، وإن
 الشاب عتوم إن لم يتم اليوم فيتم غداً .

وتمت
 عراشها أو تنع
 وره

انقضى من الليل أكثر من ثلثيه ، وإذا أنا فائمة إلى الدفء في هذه
المواعيد أردد - من مخرج ، وأراه حين ينحل ، ولا تقصص نفسي لأمر من
المعمر أن تحل من الامتحان لا بد رأيي - أليس السهارور تحاً بعد انقضاء
هذه حيل بي وببي دلت لطاري من قلبه أو من قلبه هي الحياة
المضطربة والعفس المرفقة ، ونذكر المشرّد ، ونسب الهدى لاهداً ولا نذكر

[illegible]

وإدعاء . وأهوى مع ذلك في جهاد نفسي ومواقفها حتى إذا امتلأ كل
شيء ، وعلقت الأبواب ، وانقطع سبيل إلى الدار . اضطرت إلى أن
آوئ إلى مصحفي ، وعلقت لنفسي يوماً من أيام لصير وأمداً من أمد
العوز ، وأجلت المزيعة والتسليم إلى غد .

وإني لأرى نفسي ذات يوم وقد تقدم النهار حتى كاد ينقضي وأحدث
صلائع اللس الشاحنة تعزو الأرض ، وإن لأرى حارحة كالمسلة من دار
الأمور ، ساعة كالحارحة التي نحرص على الاستحمام ، أدور حول الدار
محاورة أسوار الحديقة حتى لا كاد أمسحها مسحاً ، ثم مسطمة بعد
فيل ، ثم مسطمة كالسهم حتى أقطع ما بين الدارين من طريق وألح
حديقة المهندس ، ثم أسمى هادئة مضطربة معاً نحو الستاني كأنما
أريد أن أسأله عن شيء ، حتى إذا بلغته لم أستطع أن أقول له شيئاً ،
وإنما وقفت أمامه داهية عاصه بلهاء بمدكي الخوف ويعمرني الحياء .
أريد أن أمضي أمامي حتى أدخل الدار وأضع عرفة هادي ، فأقصي
فيها خطة أو خطات ، ولكني لا أستطيع أن أتقدم ، والستاني يسألني
من أنا ومن أين أقبلت وماذا أريد ؟ فإذا ألح علي في السؤال وأحسست
أن حسني يطول وأن الرجل سينتهي إلى الصديق لي وإنما أعرض عنه من
عنه ، به ودهوي ، ولبت مايرة ، والبصيرت مايرة لا ألوي على شيء ،
كأنني أحسني أن ينبغي قاع أو يتعقني معقب ، وما أزال أشد في عدو
حتى أضع داراً فأسل إليها لم يشعر حروحي منها ولا يعودني إليها أحد
ثم أمضي متجاهلة متعافله حتى أضع عرفة وأحد موافق من البعدة وقد
سحلت على نفسي بعض الخزيمة وإن لم أنه بها إلى الغاية .

على أني أملت الطريق بين هاتين الدارين ، وأملت البستان والاختلاف
إليه ، والأخذ معه في أطراف من الحديث ، وتبادل الإشارات معه من
النافذة ومساوقته ببعض الكلام .

ثم لم تتصل الأيام بيني وبين هذا البستان حتى كان الظاهر من أمر
هذا المهندس الشاب عندي واضحاً مبيناً . أعرف من عاداته أطواراً من دهائه
وإيابه ومن حده وهوله ما يمكن لمثل أن يعرفه حين يتصل بمحمد والمهريين إليه .

على أن المعرفة لم تقتصر على البستان وإنما دخلت إلى الخادم . فقد
كان هذا المهندس لا يستطيع أن يتكلم بستانه ، وإنما هو في حاجة إلى
خادم تطلع من أمره وتشرّف له على نظام الدار . وقد علمت أن أحق لم
تكذب تعارفه حتى تجعل البحث عمر يعلمها ، واعتلى بعد قليل من أهل
إلى هذه الفتاة الجميلة الودعة ذات الوجه المشرق والجسم النحيل والعمل
الضيق القصير . هتدي إلى مسكنة ، هذه التي أقامت عنده حبيبة
لأختي ، والتي كنت أنحدث إليها فلا أرى عندها أعاء . ولا أجد في
الاستماع إلى أحاديثها لذة ، ولا أحد مشاطاً لي أن أشاركها فيما نحوص
فيه من لغو . ولكن مع ذلك كنت حريصة كل الحرص على أن تشد
الصلة بيني وبينها ونزول الكلفة . ولم يكن في هذا مشقة ولا عسر ، في
أسرع ما اتصل بالحديث ! وما أسرع ما انتهينا به إلى الدخائل والأسرار
وما أسرع ما أحست في نفسي عداوة آتمة تشد كل يوم وتتم حتى
تملاً قلبي وتملك عليّ كل أمري وتكاد تخرجني عن طوري وتدفعني إلى
ما لا خير فيه . فقد فهمت - ولتي لم أفهم - أن مسكنة لم تحلف هادي
على الإصلاح من أمر الدار والقيام بما تحتاج إليه من خدمة فحسب ،

وإنما حلفت على قلب هذا الشاب إن كان لهذا الشاب قلب ، بل ختمتها
على هواه ومحبه وعلى لثمه وعواينه ، وما أكثر ما هذا الشاب من الهوى والعون ،
ومن الإثم والعورة ! إنما هو صائد يحفل الفئات احتلالاً ويحسد احتلاماً ،
تصرفه عن الحادثة ويحرف عن القصد ، حتى إذا بلغ من ما يرمده
من حلّ يسهل ومن ما يستره من الموت أو من حياء هي شر من الموت .

وإذن فقد حان هادي ولم يخط لها عهداً ولم يستبق لها مودة ، ولم
يكذب بعارقها حتى انصرف عنها وزهد فيها ، والنفس لديه وهواه حيث
استطاع ، لم يحفل بما قدّم من سوء ، ولم يحفل بما قدمت إليه من تفضية ،
ولم يضر إلى هذا كله إلا على أنه لم يكن فيه الوقت ويستعان به على
احتمال الحياة وتسلّي به الغربة في مدن الأقاليم .

هو حاتم إدر ، وهو يصيب إثم الحياة إلى إثم العروة ، وهو حتى
أن ينق حراء هديس الإنس كأنشع ما يكون الحراء ، وهو لا في حقه من
هذا الحراء في يوم من الأيام . ولأفقه من يد آمنة هذه لى شهدت لموت
مريم . شهدت حين عُدّي على أحبها من يد ذلك الحار لأثم في ذلك
المصاء المريض ، وشهدته حين عُدّي على ذكرى أحبها من يد هذا
المهندس الشاب العاوي وفي هذه الدار الصغيرة الأبيقة اني يقوم عليّ
استئان وتصطرب فيها مسكنة كما كانت تصطرب فيها هادي .

نعم هذه التي تصطرب في قلبي اضطراباً وتحت في التفكير في
الموت وكيف يساق إلى الناس ، وتحت إلى التفكير في الحياض التي
تغرق الصلور وفي السم الذي يعمق الأحشاء . أعيرة هذه بي على ما ادم في
عرواقه ويصعد له الله في وجهي ويصلح لها عيناى بشي ، كأنه سرور ،

يحمل أهل الدار على أن ينكروا منظري وعلى أن يشاءوا ما خطبي وإلى
أى حال سينتهي بي ما أنا فيه من الدحول ؟ !

أغيرة هذه التي زادت الحزن عن نفسي وأقامت مكانه غصاً ثائراً
متصلاً لا يهدأ ولا ينقضي ؟ ولمن أعار أو على من أعار ؟ أغائرة أنا لهذه
الأخت البائسة التي ذقت الموت في سبيل هذا القبيح دون أن يكون
لنصحتها أهلاً ؟ أغائرة أنا لهذه الرغبة التي كانت عملاً نفسي وتملك قلبي
وتدفعني دفناً إلى أن أعرف من أمر هذا الشاب ما كنت أجهل ، والتي
لم تكذب تبلغ غايتها حتى انتهت إلى بأس مهلك لا يخرج منه ولا آخر له ؟
أغائرة أنا لهذا التعكير الطويل فبمن لم يكن أهلاً للتفكير ؟ لمن هذه الغيرة
وعلى من هذه الغيرة ، أو إلام تريد أن تنتهي بي هذه الغيرة ؟

لا أدري ! ولكني أعلم أنها قد جعلت مقامي في دار المأمور صبراً
ومشرقاً لخديجة شاقة ! فقد توحشت أو كدت أنوحش ، وأصبحت نافرة
من كل شيء حتى من خديجة التي لم أكن أظن أنني سأعرض عنها يوم
من الأيام . وقد أخلت أحسن أن مقامي قد أخذ يحفل ، وأن عشتري
قد أخلت تشق على من حولي ، وأن خديجة قد أخلت تجزيني جفاء
بجفاء وإعراضاً بإعراض .

لك لله يا آمنة إلام تدفعك هذه النفس المضطربة التي لا يهدأ ، وهذه
المواطف الثائرة التي لا تستقر ، وهذا القلب الهائم الذي لا يعرف ما يريد ؟ !

وأصبحت ذات يوم فإذا شيء عريب يصطرب في حو الدار أحبه
ولا أنسيه ، وأشعر به ولا أحققه ، أغفه في وجه المأمور وفي وجه ربة البيت
حين ينصران إلى خديجة ثم يسترقان نظرات فيها أمل متبع وحرن مكث ،
وحين يحلوان للحديث بعد العشاء أو بعد العشاء فتطول بينهما الحدة أكثر
تتحدث أن تطول . وأغفه في هذا الانسجام الذي يهديه المأمور صحياناً
كريمياً إلى أهل الدار جميعاً ، متحدثاً إلى من لم يكن يتحدث إليه ، متلصصاً
لمن لم يكن يحمل بوجوده ، وفي نظرات طويلة يلقيها على أنا حين ينقار ،
وفيها تظهر ربة البيت من تسط مع الخدم وعطف عليهم والميل إلى أن
تأخذ معهم بأطراف الحديث .

أغفه في هذا كله ، ولكني أجد فيه عموماً بشر ميلى إلى الاستطلاع ،
ويكد يسليني بعض الشيء عن المهدس الشاب وعمما يقع في داره من حياة
وإثم وعمما يثير في نفسي من عصب وعيرة . وأهم أن أسأل خديجة عن هذا
الذي أغفه ولا أنسيه ، ولكني أحدها عاقلة لا تدمج شيئاً ولا تحس شيئاً
تعرض عما هممت به وأكسني بالملاحظة والانتظار على أن الاستظار م
عن ، في تمضي أيام عبيثة حتى يظهر حركة في دار المهدس الشاب
تبع حركة في دارنا ، ثم تتلاحق الحوادث بسرعة ، وهذا هي تسكني
بعمرو ويتأثر في نفسي كل شيء وتذكركي بكل شيء في وقت واحد

وتخرجني من هذا السكون ليأشس الذي لرمته إلى نشاط رائس دفعت إليه دفعا .

هذا بيت المهندس الشاب قد ظهرت فيه الحركة وكثر فيه الاضطراب فأثارته ينقل من مكان إلى مكان ويأله الإصلاح والتنظيف والترتيب ، ويؤثر إليه بأثاث لم يكن فيه ، بعضه مشترى تعهر عليه الحدة ، وبعضه مستعار يظهر عليه انقادم ، كأما تنبأ الدار لاستقبال بعض الزائرين ، فهي تعد لهم ما يحتاجون إليه من لفرات والمخبرات ومن الأدوات والأثاث . والبستاني مسرف في الحركة مدفع في النشاط ، أراه ها وأراه هناك ، وقد استعان باثنين أو ثلاثة من شباب المدينة يعملون معه في النقل والتنظيف والترتيب . وسكينة تعمل معهم لراصية ولا ساحطة ، لا مبهجة ولا متسمة ، وإعما هي تذهب وتجيء كأنها أداة لا تعرف الرحا ولا السخط ، ولا تحس الحزن أو الفرح .

وهذه الحركة المتصلة في بيت المهندس قد أثارت حركة فائرة متقطعة في بيتنا ! فهذا سرير ينقل ، وهذه صائد تعار ، وهذه آية تجمع ثم تحمل ، وهذه ربة البيت تكلمني راصية باسمه أن أذهب إلى بيت المهندس فأعين الخدم على بعض ما يعملون ، وأن أشرف على التنظيم والتنظيف والترتيب . وأن أعني بأن تنبأ الدار لاستقبال الزائرين تهيئة حسنة لا عيب فيها ولا تقص . ثم هذه ربة البيت تستعد في بيتها لتهيئة الطعام الذي سيقبل إلى بيت المهندس إذا كان العد ، ولإعداد الوليمة التي مستقام في دارها إذا كان اليوم الذي يليه .

وما أكاد أذهب إلى بيت المهندس وأخذ مع الخدم في العمل والحديث

حتى أعلم - وليثنى ثم أعلم - ، وأفهم - ويثنى ثم أفهم - أن أسرة المهندس مقبلة من القاهرة إذا كان العد لتقيم مع ابنها أياماً أو أسابيع ، وأن هذه الزيارة ليست كغيرها من الزيارات ، وإعما هي زيارة تتم لأمر يراد ، فتحطت بنت المأمور للمهندس الشاب ، وتستشهد المدينة أفراحاً لم تشهدا مد عهد بعيد ، ويسمع أهل المدينة من ألوان العناء ما لم يتعودوا أن يسمعوا من قبل ، فلن يقرأ عليهم المولد هذا المعنى المشهور الذي يقيم في عاصمة الإقليم والذي يتعصب له أهل العاصمة وما حوفا من اقرب وما يحاورها من المدن . ولن يقرأ لهم المولد هذا المعنى الآخر الذي يقيم في أقصى الإقليم نحو الشمال والذي ينافس صاحبه أشد المنافسة ويتعصب له نصف الإقليم أو ما بقرب من نصفه . ولن يقرأ لهم المولد الشيخ مذكور هذا الذي يقيم في المدينة نفسها ويحبه أهل الريف ، ولكن شهرته لا تتجاوز المدينة إلا قليلاً . لن يقرأ لهم المولد واحد من هؤلاء المعين . ولكنهم سيمسعون لبعض بآتي من القاهرة ، قد يكون عد الحى ، وقد يكون الشيخ يوسف ، وقد يكون غيرها من كبار المعين . وستأتى العوالم من القاهرة ، وستأتى معية مشهورة لتطرب السيدات ، وستقام الزينة وتولم الولايم على أحسن طراز وأهل شكل ، وسيأتى المظمون لذلك والمشهورون عليه من القاهرة لا من المدينة ولا من عاصمة الإقليم . وكان الخدم يفيضون في ذلك ، وبحرون في تفصيله مع هذا الحيار الربيعي السادح الذي يحسب أنه بعضى أمامه إلى أمد أمد على حين لا يران في مكانه لم يتجاوزته أو لم يكده يتجاوزته إلا قليلاً .

كانوا يفيضون في الحديث عن المعنى والمغنية ، وفي الحديث عن الطهارة

• سيئون الصغار • وعن فراشين اندس سطعون لومة ويطوفون
 من بالاطاق والأقداح ، وعن اوسيفى التى ستأتى من القاهرة
 متفصى في المدينة يومئذ أو أياماً تطرب الناس في الصباح وتطرب الناس في
 المساء ، وعن مدعوين يدين سينهدون الحبل وندين يدعون إليه من
 قريب ومن بعيد ، وفيهم شذوات والكاوت ، وفيهم لعناء من شيوخ الأهر
 كانوا يبيعون في هذا كله ، ويحسون في الإفاضة فيه لمدة يتمحرون
 بها الحوادث ويستفون بها إلى ما ينظرون من فرح وعطية وانساج .
 وكنت أنا أسمع لأحاديثهم فأفهمها ، وأعى أفعالها وأهل أكرها ، وأفكر
 فيما لم يكن بد من أن أفكر فيه ، وهو أن هذا المهندس الشاب
 قد أعزى أخنى ثم دفعها إلى الموت ، ثم أخذ بحورها وبسبك ما كان
 يجب لها عنده من حرمة ، ثم هو الآن ينظم الحيانة نظماً ، ويريد أن
 يأتيها ويقدم عليها ويمسح فيها حجرة باسم الدين والعرف والقانون .

نعم ! ولن نكون سكينه هذه العاقلة البلهاء التى لا أعرفها ولا
 تعرفنى إلا منذ حين ، لن تكون خليفة هنادى على بيت هذا الفتى وقلبه
 ومحوره وإثمة ، ولكن التى تحلف هنادى على هذا كله ستكون خديجة ،
 خديجة أحب الناس إلى وآثرهم عندي وأحسنهم مكاناً من فنى ، خديجة
 التى أحدها عندها - وعندها وحدها - العراء عما لقيت من شر وما
 احتملت من بكر وما ألم من مكروه ، خديجة التى أستمعن بها على
 احمرار هذا الخطب الذى أصابى في أخنى وفي أهلى ، هذه هى التى
 ستراد على أن تأخذ من قلب المهندس الشاب ، ومن بيته ، ومن حياته
 كلها ، كذا ما يسعى لعتاة أن تأخذه بعد أن سبقت إليه هنادى وأدت ثمة

ذلك سم تركى ندى أريق في دنت انصاء عريض
 ولم أكن أسأل نفسي كيف يكون موقع هذا أسأ من نفس خديجة
 حين يبنى إليها أنكره مصيق به . أم تحبه وسهج له " ولم أكن أسأ
 نفسي كيف تجد خديجة موقعي منها حين أحول أن أصد عنها حب هد
 أرحل وآتم وأن رزئت عنه . رأ أندل في دنت من القوة والجهد
 ومن الحيلة والدكاء ما أملك وما لا أملك ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا ، ولكى كنت نائرة أشد
 الثورة وأعنفها ، مؤمنة أشد الإيمان وأقواه بأن هذا الأمر لن يكون ،
 مصممة أشد لتصميم على ألا يكون مهما تنبأ له الظروف ومهما
 تتظاهر عليه القوى .

ثم لم أكن أسأل نفسي عن كل هذه الحواطر التى كانت نحيش في
 صدرى ونعت في هذه الثورة وهذا الإيمان وهذا التصميم . أكانت
 حواطر صادقة أم كانت كاذبة ؟ أكنت وفيه لأخنى بالعهد مشفقه
 على حقها أن يصعب ، حريصة على أن أحتفظ لها بهذا العاشق الحاش
 رغم أنه ، مقاومة في سبيل ذلك قوة المظرة وقوانين الحياة . أم كنت
 أتخذ هذه الحواطر حجة ونعنة أخنى بها على نفسي ما لا أحب أن تظهر عليه .
 وأسئر بها دون قلبي ما لا أحد الشجاعة على أن أواجهه به في صراحة
 وجلاء ؟

لم أكن أسأل نفسي عن شيء من هذا بل لم أكن أسأل نفسي
 عن شيء ما ، وإنما كنت أفنى فوقى وجهدى وتفكيرى في أن أحول
 بين خديجة وبين هذا التدمير الذى يدبر وهذا المكيد الذى يراد . وكثيراً

ما كان يخطر لي أنني أحمي خديجة من شر عظيم ، وأحول بينها وبين خطر منكر ، وأقوم فيها أن يقرسها السبع أو يفتالها الثوب ، وأمن بها على أن تبذل هذا المحرم الآثم الذي لا يعرف حقاً ولا يرعى حرمة ولا يرحو وقاراً لخلق ولا دين . وكثيراً ما كنت أقدر أن قياسي دون خديجة وحمايتها من هذا الخطر الذي يترسك أن يلم بها فرص يأخذني به الوفاء لما بسا من مودة ، والرعاية لما لها عندى من حيل . وكثيراً ما كان هذا كله يجتمع ويأتلف معصه إلى بعض ويمثل أمام عيني محتسماً مؤثماً قد اتخذ من لوفاء والصبح والإخلاص ربه حلالة . وإذا هو أمامي امرأة نقية صامية ، أنظر فيها فترا إلى صورة نفس كريمة عطية قد ارتفعت عن كل نقيصة ، وأصحت مثلاً للبطولة واشتهت بالنصحنة في سبيل الأعداء التي أراها الخطر ، والصديق التي يوشك الخطر أن يعتالها . ولو أن حولت وجهي عن هذه المرأة بعض الشيء في ذلك الوقت ، ولو أني نظرت في عيني ولم أنظر أمامها ولا من حولي . ولو أني تعمقت قلبي في حرارة صبري ، لرأيت شراً ما له من شر ، ولشهدت هولاً ما له من هول ، ولعرفت أنني لم أكن في الأخفى ولا للصديق ، وإنما كنت أوتر نفسي من أراء بخيراً وشرّاً ، وأمف هذه النار المصطربة المتأحجة على نفسي وأحبها من أن يحترق بها أحد غيري !

نعم ! ولكنني لم أكن أنظر في عيني ولا أحاول النظر فيها . وإنما كنت مدهوعة إلى إفساد هذا الأمر الذي يدر ، ومع لأسباب أن توصل بين خديجة وبين هذا المهندس الشاب الذي كان لأختي مند حين والذي يجب أن يكون لي بعد حين ، كما نما ورثته عنها بعد الموت !

والعرب أن هذه الحواطر المصطربة كنها لم تعتمد من أمرى شيئاً ، ولم تعير من شكى ولا من مقام حنان لدى ألقه أهل الدار قليلاً ولا كثيراً . إنما كنت أصبح وأمسى ، وأذهب وأحيى ، وأعمل وأكمل ، وأشط وأقتر ، كما رأي أهل دار من قبل . بل حبراً مما تعودوا أن يروى في الأيام الأخيرة بعد ذهب عني الدهون ، وهارقي الوجوم . واستقرت عباى وهدأنا واستقامتا ، فبيتنا تصبرنا ولا نقدحنا الشرر أو ما يشبه الشرر ، ولا نظران هذه النظرات التي كانت تخيف مني وتثير في العوس من حولي شكاً وريباً وإشفاقاً . عدت إلى هدوء غير مألوف ، وانطلق لساني بالحديث ، بل تردد الانسجام على شفتي . وأحد الإشراف يتفرق في وجهي من حين إلى حين ، حتى لم يشك أحد في أن هذا المرح الطارئ قد شعاني مما كنت أحد ، وردت إلى ما كان قد هارقي . من اعتدال المزاج .

ثم نصح وإذا الزائرون قد أقبلوا ، وإذا النشاط المنتسم السعيد يملأ الدار جميعاً ، وإذا أنا أشارك من حولي في مظاهر ما يجدون من فرح وسهجة ، وأعرد وحدي بلوعة لا تنقضي وحزن لا تخمد ناره . يا لقوة النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنها لا جد لها . يا لمكر النساء ! لقد آمنت منذ ذلك الوقت بأنه لا آخر له ولا قرار . يا لقدرة النساء على الكيد ومراعاتهن في التلوين وهوضهن بأثقل الأعباء وثباتهن لأفدح الخطوب !

لقد أكرت نفسي ، بل أكرت المرأة في نفسي حين رأيتني أضطرب في هذا التمثيل وكأنني أضطرب في الحياة الواقعة لا بأخلفي أحد

ولا أحد يصي نصع أو تكلف أو محاولة ، وإنما أنا أكذب وأناق
وأصطع الرياء وأحسب ما أحس وأظهر ما أظهر ، في سهولة ويسر ، كما
نفس وكما أفتح عيني وأعمصها ، وكما آتي ما تدعني العريضة إلى أن
آتي به من الحركات ، ومع ذلك فمعص ما عرص لي من الخطب ومعص
ما أطمح من المهم كان حليفاً أن يحول بيني وبين الحياة فصلاً عن الحياة
المادة المصطنعة ، فصلاً عن هذه الحياة المصاعقة التي يملؤها الكذب
ويجري فيها الرياء كما يجري الماء في العنبر الرطب .

١٧

واسمى اسماً في حديجة . كما انتهى هذه الأسماء في الغنيات من نيات
الصغيات الوصى ، طاهراً حبياً ، وواضحاً عامصاً ، يتقرب إليها ويسر
عنها ، تسأله وتردعه ، فتجلب له نفسها وتحتج مع ذلك من أن
تحدث فيه ، ويمتنع به فيها عظة وسروراً ، ويعرض عليها الأدب
مع ذلك أن تنكف الكآبة والحزن كما ذكره . وأن تعرض بوجهها
عريضاً كما هم أحد أن يشبه إليه من قريب أو بعيد . وأن تفرقه
فراراً ! لأن الحديث هو إليها صريحاً حبياً ، على أن يبقى ردي تكلف
من ذلك ما يتخلعه أماناً مع من كان حولها من أهل الدار ، قد أثرتني
ما كانت تؤثر به في كل شيء من هذه الصريحة السادسة ' الخلو ' .
فلم يحف عني ما كان يملأ قلبها من فرح وعظة ، وما كان يعنى
بها من فن وإشراق ، وما أكثر ما تحدثت إلى وما أكثر ما تحدثت

إليها في أمر الخطبة والزواج ، وفيما تحيط بالخطبة والزواج من هذه الأمور
التي لا تحصى ولا تحصى ! وما أكثر ما تحدثت عن خطبتها المهدس
وعما يعرف وما لا يعرف من صفاته وأخلاقه وأسرته وثرثته !
وما أكثر ما أغرقنا في الأمل ومصينا مع الخيال ! وما أكثر ما فصنا
الأمور تفصيلاً ، وأطلقنا الوقوف عند الدقائق وانصاعنا من الأمر ،
فتحدثنا عن الثياب التي تشتري ، وعن الحلى وعن الأثاث ، وأقمنا
القصور وأقمنا إقامتها إقماناً !

وأنا في هذا كله أجازى صديق مجازاة بسيرة لا أنكلف فيها ولا أحاول
حتى لم تشك لحظة في أنني أشاركها في أمر الخطبة والزواج كما كنت
أشاركها قديماً في أمر اللعب ، وكما كنت أشاركها إلى أمس في الدرس
والقراءة والامتناع . بل نحن نتحدث فيها سيكون عدداً أو بعد عد حين
ينم هذا الأمر ، وحين تستقر خديجة في دارها ونصح ربة بيت . ونحدث
في الفرس الذي لا بد من أن نحصى فيه ، وفي القراءة التي لا نستطيع أن
نصرف عنها ، ونرتب أمراً على أني سأنتقل مع خديجة إلى حيث نكون ،
وسأشاركها في حياتها مهما تكن الظروف ، وما الذي يمنع من ذلك
وما دخلت هذه الدار إلا لها ، وما عملت في هذه الدار إلا معها ،
وما استطعت في يوم من الأيام أن تقل شركة أو ترعى من أهلها أن
يكلموني عما لا يتصل بها من الأمر ، كنت لها طفلة وكنت لها فتاة ،
ويجب أن أكون لها حين تصبح زوجاً وربة بيت .

نعم ! ما أكثر ما تحدثنا في هذا كله وأقمنا فيه الساعات أثناء
النهار حين كان من حولنا بصطربون فيها بضطرب فيه أهل الدار حين

شياً لإقامة الأفراح ، وأنفقنا فيه الساعات أثناء الليل حين كان كل شيء من حولنا يسكن هذا السكون العميق الذي تمتاز به ليالي الريف ! ولكن نفسي في هذه الساعات كلها لم تكن هادئة ولا مطمئنة ، وإنما كانت ثائرة جامحة . وكنت كثيراً ما أكف عن الحديث لأفكر في هذا الشخص الغريب الذي يحتوي نصين متناقضتين أشد التناقض . نفساً تهيج وأخرى تنس ، نفساً نعد وأخرى توعد ، نفساً تمضي في الحديث بما يسر ويضر وأخرى تمضي في تدبير ما يحزن ويسمع .

وتنقضي الأيام الأولى ، ويكون الغاء ويكون التراور ، ويكون الامتحان للخدمة بالنظر والحديث ، ويلتف كل شيء من غايته ، ويستحيل الجو إلى الوضوح والحلاء ، وتكس أهل الدارين في حركته مرور وضطة وأمل ورجاء في غد .

ويدنو أهل الدارين من هذا اليوم الذي تتكشف الأمور فيه عن نفسها ، وتصبح الخطبة فيه أمراً واقعاً يعرفه كل الناس ، وأنا مؤثرة للصمت أحدها فيما يأخذ فيه أهل الدارين من ألوان النشاط . ولكني أجدني في ساعة من ساعات النهار وقد آذنت الشمس أن تتحدر إلى مغربها ، وانتشر في الجو هذا الحزن الصليل اليسير الذي يتشر به مع الأصيل فيهدئ من نشاط الشمس ، ويخفف من وجيب القلوب ، ويلقي على الآمال المشرقة بعض الشحوب ، ويجري في الأصوات الفرحة نغمة لانحدر من كآبة ، أجدني في ساعة من هذه الساعات مقبلة على ربة البيت ، حتى إذا بلغت عرفتني دخلت لا أسأذن ، ثم أغلقت الباب من دوني لا أسأذن . ثم وقعت واحدة بين يدي سيدتي لا أكون شيئاً ، وإنما سحدر

اللمرغ غريبة على حدى ، وسيدتي تنظر إليّ في غير انكار وفي غير لوم ، كأنها قد فهمت عني ما أردت أو أقول ، وكأنها قد استجابت لدعائي ، فهي ترفق بي وتؤكد لي أني لن أفارق خديجة ولن يحول بيني وبينها حائل ، وأنى سأفصل معها حين تنقل وأسافر معها حين تسافر ، وأسافر معها حين تقيم ، وأن أحسن حظاً منها مني ! هي مصطرة إلى أن تعارف ابنتها . أما أنا من أفارق سيأتي وصديقي

وأنا أسمع هذا الحديث وأفهمه ولكنه لا يسع مني ولا يؤثر في نفسي ، فما لهذا الحديث أقيب وما حاجتي إليه أن أسمعه من ربة البيت وقد سمعت ألف مرة وسرة من خديجة ! وفي استطاعت ربة البيت أن تفرق بيني وبين أسناني جد أو لبيد كذا . لم أقبل لأسمع هذا الحديث ، بل لم أقبل لأسمع شيئاً . وإنما أقبلت لأفهم شيئاً . وقد فلت في صوت عادي نله هذه اللمرغ المخلدة الهمة . فكيف أقدر أنه سيفزع من هذه المرأة مروح الصاعق ، وأن قد دخلت هذه المرأة في هلعها ولم أخرج منها إلا في عصف واضطراب . ولكني قد أتممت ما أردت أن أقول ، وانتظرت ثم نظرت ، فلم أسمع ولم أر على هذه المرأة اضطراباً ولا دهشاً ولا شيئاً يشبه الاضطراب واللعش . ثم هممت أن أصرف عجلة مستخفية ، ولكنها وهنت بالإشارة وتركتني لحظة لا بدول شيئاً ولا تلقى إلى لحظة ، ثم قالت في صوت عادي مترن : وهل أنبات خديجة من هذا بشيء ؟

قلت وقد أغرقت في البكاء : كلا يا سيدتي ! وما ينبغي لنفس خديجة الطامرة البريئة أن يلقى إليها حديث هذا الإثم . ولولا أني

أوتر حديجة وأوتر الأسرة كلها لما أسأتك بشيء ، ولا أفصيت إليك سر هذه الأسرة الدثمة التي تعيش في يؤمها المظلم في أقصى الريف .
قالت وقد هضمت إلى مشاغله - لا بأس عليك ! على يد ع سر أسرتك ثم صممتي إليها وفسي وهي تقول : لقد أنقذت استي من شر عظيم .

١٨

قلت نعم يا سيدتي ، قد أنقذت حديجة من شر عظيم ، ولكنك تربين معي أن لا مقام لي في هذه الدار منذ الآن ! فكل شيء . يأمرني بالتحول عنها قالت وقد أحسست في صونها أنها مشغولة المال منصرفه النفس عما عكس أن أسط لها من حديث . وما ذاك ؟ قلت مقنصدة متعملة مصصرة أن إنما أتحدث لأعتذر عما سأتى من الأمر لم أتعود يا سيدتي أن أحس على حديجة شيئاً أو أكنم من دواها سرّاً ، وما يسمي بل ما أستطيع أن أنقذ معها مستأثرة تعلم ما أعلم طابوبة عنها مسعاى عندك وستعلم حديجة من غير شك أن هذا الأمر الذي يدنى فيه قد آمن وعدل عنه ، وسكون له في نفسها أثر حاد ، ما أشك في ذلك . ولست آمن نفسي حين أحارب ما أحب على من تسلتها ونعزيتها أن أروح لها بعض الحديث والخير كمن الخير في أن أتعمل الرحيل . وما دام الله قد قصي على الشفاء فلا بد من الإدعاء لما قصي الله . قالت : وأين تريد أن تذهبى ؟ قلت لا أدري ! وإنما يجب أن أذهب أولاً ، فأما إلى أين

شيء مأسيتيه بعد ذلك . . !

ولم يرتفع صبحي بعد حتى كنت حيدة عن دار المأمور قريبة منها مع ذلك . فخطت ما يكتب ما يكون من هذين الأسرتين اللتين لم تتصل بهما لأسباب إلا لتفصع . ولم تشأ بهما لودة ولا لتسهيل إلى عداه أو شيء شبهه لعداء . ولم أجد في ذلك مشقة ولم أنكلف فيه عناء ، وإنما تحولت من دار إلى دار . وفصيت يوماً أو بعض يوم عند هذه المرأة التي تحدثت عنها في أول هذه القصة ، عند رنونة تلك التي عرفتها في بيت العملة وقصصت من حديثها ما قصصت .

أقنت عيناها نحو الظهر . فالتفتها قائمة تكيل بعض ما تكيل من الخب ، وأمامها سواد يشرب منها هذه تشرب القمح ، وهذه تشرب البزرة ، وهذه تشرب لبنول . هذه تشرب نقداً ، وهذه تشرب نسيئة ، وربونة نحنكم في هذه وتلك صائحة مسرفة في الحركة ، لا يستقر لسانها في فمها . ولا تستر وجهها أولاً يستفر ما يختص عليه من الصور ، ولا شكاك . فهي عذبة حياء ، وباسحة حياء ، وهي تفعل بعينها وشفتيها وحاجبيها الأفاعيل وتدل بها على ما قد يعجز الكلام عن أن يدل عليه ، وهي تسب هذه حادة وتسب هذه مازحة ، وهي تلمح حياء وتصرح حياء آخر ، وهي عصي في ذلك ولسوة يسمع لها راصيات عنها معجبات بها ، مشاركات لها في بعض ما تقول وفي بعض ما تأتي من الحركات ، وفرد من شباب المدرسة قد اجتمعوا عبر بعيد ينظرون ويسمعون ، ثم يسادون فيها بهم أحاديث فيها الدعابة والرمص . وفيها اللفة والإعجاب .

فما رأيي ربوبه لم سكرني ، ولكنها لم تنس في الزمان .
 نظرت إلى من الرأس إلى القدم ، ثم قالت في صوته : هات
 دى تفديس . لقد بعد العهد بك مد الثقبان بيت عمدة ، ولكي
 كسر أسطرك ، وما شككت في أنك ستأين إلى هذا بيت مستقيم
 مني هذا المعام . قلت : فهل أسألك الودع ؟ قلت : وما سررت ؟
 لعل الودع قد أناني من أمرك عما تعلمين وما لا تعلمين .
 هذه نمره من فوقنا فتخص من حقيقتك وأنت نحي .
 حس . ولا تحصل الطعام إن كنت حائفة من وقت العدة ، لم يحن بعد
 وإن كنت أفتر من أمرك أنك لا تحصين مالهت فما حصن بالصعاب .
 فما أرى إلا أنك تأكلين في كل وقت هذا شأنك أيها الصياد شعب
 سطورك أكر ما تشعل بأي شيء آخر ومن سرور لعلك
 تشعل .

فقطعت عليها حديثها بالانصراف عما والتصعيد في السلم إلى امره
 التي دلتني عليها ، ولكنها نعتي مع ذلك بالحرية والدعابة ، وأحدث
 تقول . اهري ، اهري ، وحدي في الحرب ، إن أدنيتك النقيتين الريشين
 لا تستطيعان أن تسمعاً لما ألقى من حديث . إنك تحافين من اهرار الوجه
 واصطرابه لن تحدعيني وإن استطعت أن تحدعي عيري ، فإنك لتحيين
 هذا الحديث وتخوضين فيه وفي شرمه مع أنراك من الفتيات ، ولكنك
 تتصنعن الحشمة وتكلفن الحياء . على أنها لم تمض في هذا اللغو إذ لم
 تأسر استماعي لها وانصراني إليها فصحت فيما كانت فيه من بيع وكيل ومن
 دعابة بالوجه واللسان .

وهرعت لي بعد ساعة ، فأقبلت عليّ هادئة باسمة ، تسألني عن أبي
 وأخني وأجيبها عن أسئلتها عما أريد ، فتصدق ما تصفق وتكذب ما تكذب
 ثم قالت : وأنت الآن تريدان العمل ، فأين تحيين أن تعمل ؟ وكيف
 تريدان أن تعيشي ؟ إن لك من حسمك هذا الحميل ، ووجهك هذا
 الوسمي ، وسطرك هذا الذي يسحر الشبان ويغلب عقول الرجال ،
 ما يكمل لك حياة فيها ثروه وعي ، ولها نعيم وترف ، وفيها لذة ومتاع ،
 وفيها تسلط وسيطرة وامتنعاف وعش بحول الشباب والشب . قلت
 ممصة : دعيني من هذا الحديث ، ولست أريد منك شيئاً ، وما أقبلت
 استنبعث علي شيء . وإما أملت بك محبة لك قبل أن أنرك هذه المدينة
 فإن عها مرتحلة . قالت وقد أدارت عينها وأصغت على وجهها شكلاً
 مصحكاً نمره السحرية ويشيع فيه التكديب والاستهزاء ، وأرسلت من
 لها شيئاً سكرأ أنعته بشعر سكر ما أشك في أن انساب الخضمين
 غير بعيد قد سمعوه فتصاحكوا له ، وانتهى إليها مصحكهم حيث ك .
 مرادها مرحاً ونشاطاً ، وملائي حرياً واستحياء ، قالت : لا تراعي لا تراعي ،
 فلن أعرضك للبيع كما كنت أعرض هذه الحبوب آنفاً ، ولن أكرهك
 على ما لا تحب ، ولكي أعرض عليك ما عدي . فأنت تكرهين هذه
 الصاعه أو تطهرين كرهها الآن ؟ فعدي غير هذه الصاعه ، ولكن
 نبي يا استي أنت راحمة إلى فطالة مني ما ترفضين الآن . لست
 الأولى ولن تكوني الأخيرة . تريدان عملاً كله جد كهذا الذي كنت
 فيه عند المأمور ، فلم تتركين ست المأمور ؟ ولكن هذا من أسرار .
 وإن لم يكن بحيث أنالك مني أمهات من أمثالي مر ، فقد أحب أن

أعلم من أمرك جليته وحميه لأوصي بك عن علم . أخرجت مارة ؟
 أم خرجت لسوء العشرة ؟ أم خرجت للكذب ؟ أم خرجت لكثرة الصياح ؟
 أم أغضبت مبدك ؟ أم أغضبت مبدنك ؟ أم أغضبت بنت الأمور ؟
 أم أغضبتهم جميعاً ؟ وكيف خرجت من هذا البيت في هذا الوقت ؟
 وهل تعلمين أن في المدينة مأمورين أو يثنين كبيت المأمور ؟ وأنت
 تخرجين في الوقت الذي يستعد فيه البيت للأفراح والتبالي الملاح ،
 وتترلين عما كان يحق لك أن تطعمي فيه من العطايا والهبات ! فليس من
 شك في أنهم كانوا سيمنحونك كسوة فاخرة . وليس من شك في أن كثيراً
 من النفد كان سيقع إليك من هذا ومن ذاك ومن هذه ومن تلك ، فكيف
 تركت هذا كله ؟ أتركته راضية ؟ ولماذا ؟ أم أكرهت على تركه ؟ ولماذا ؟
 تكلمي ! إلى لا أحب الغموض ، ولا أطمئن إلى الأسرار : ولا خير في
 النسخ والإباء والكتمان ، فما تخفيه اليوم سأظهر عليه غداً وسأظهر عليه
 قبل أن تعيب الشمس ، ولست برنوبة إن خفيت على أسرار فتاة مثلك
 لم تلح العشرين ، وأنا أعلم من أمر هذه المدينة وأسرار أهلها وأحار
 الأسر التي تقيم فيها أو تفقد عليها أو ترحل عنها ما أعلم . تحدثي ! كيف
 خرجت من بيت المأمور أو كيف أخرجت منه ؟

وأمام هذا السيل المنهر من الحديث ، وأمام هذه الأمثلة الملتحة
 وهذا الحرص الشنيع على الاستطلاع واستكشاف الأسرار ، لم يمتني
 إلا أن أهض وأعمد إلى حقيقتي فأحلبها وأمسى نحو السلم ، ولكنني لم
 أكد أبلعه حتى رددت عنه رداً ، وحتى كانت حقيقتي قد خطفت مني
 خطفاً ، وحتى كانت زنوبة قد أحاطتني بفراغها المكرنين ، وأخذت

تلح على بالصم والتخيل تهدئي وتعرضاني ، وأنا لذلك كارهة أشد
 الكره ، وعلى ذلك ساخطة أشد السخط ، ولو استجبت لنفسى لصحت
 منحنى طالة العوثر ، فقد أخذت أمقت نفسي وأزهدتها ، وألغيت هذه
 اللحظة التي خطر لي فيها أن آوي إلى دار هذه المرأة ريثما أمضي أمري
 بعض الشيء وأدير لي عملاً أمضي فيه .

ولكن رنوبة ملحة على بالرفق والملاطفة ، وقد خبت صوتها وحذت
 حذيتها ، وأخذت تتحدث إلى بأمور ليس بينها وبين ما كنا به صلة ،
 كأنها أعرضت عن كل ما من شأنه أن يسوقني أو يروضني أو يقتني عن هذه
 الدار التي اقتنعت زنوبة بأن لا بد من أن يطول فيها مقامى أياً أو أساميع .
 ثم أنظر فإذا نحن قطعنا وقتاً غير قليل في حديث هادئ فيه الحد
 وبه الهرل ، وإذا أنا آتس إلى هذه المرأة وأطمئن إلى ما أحسن من
 عظمها ، وأنظر فإذا حياتنا قد مضت في هذه الساعات يسيرة قد زال
 منها التكلف ، وإذا نحن قد نعدينا معاً ، وإذا كل واحدة منا قد أخذت
 تتحدث إلى صاحبتها في شيء من السذاجة والثقة غريب ، وإذا نحن
 مستحصر آلامنا وأحزاننا ، وإذا كل واحدة منا تستكشف في صاحبتها
 من وراء هذه الصورة الطاهرة التي يعرفها الناس صورة أخرى خفية من صدر
 لنفس ونمطاً مستتراً من تماثيل الشقاء ، وإذا كل واحدة منا ترفق
 لصاحبتها أو تتخذ الرثاء مطهراً من مظاهر الرثاء لنفسها ، وإذا نحن
 مشرك في البكاء وتعاون عليه كما كنا نشترك منذ حين في الضحك
 ونسبح إليه . ولم يكده بنصرم الهار ويقل الليل حتى كانت الألفة بيننا
 قد انتهت بنا إلى هذا الطور الذي يطمئن فيه الإنسان إلى الإنسان وإن

أحفظ شيء من الاحتياط . فلم أظهر دونه على سري . ولكي
أماها بأن أحتي قد قصت في العرب ، وزعمت لها أني إنما خرجت من
بيت المأمور في إثر معاصية كانت بيني وبين الخدم ، ثم لم تظهر لي
كنت أراي أهلاً له من الإنصاف . وقد سمعت مني ما أقول وهي لي
التكذيب أقرب منها إلى التصديق . ولكنها تحسنت الحداد والإلحاح فيه ،
وأظهرت الرأفة لي والعطف على ، ووعدني بأنها ستعقد لي عملاً شريعاً
مريحاً إذا كان العد . وأملت على أن أقضي الليل معها وقد سمعت ،
وقد أنفقنا جزءاً غير قليل من الليل في مثل ما أنفقنا فيه النهار فلما
أصبحنا غابت عنى ساعة أو نحو ساعة ، ثم عادت إلى مهلة مشرفة
الوجه وهي تقول : لقد وجدت عملاً ما أشك في أنه سيرصيك . متعلين
حيث كانت تعمل أملك قل أن نرحل عن المدينة في بيت فلان ،
أنذكرين اسمه ؟ أنعرفيه ؟ إنه رجل من أصحاب الرأف والبسر ، وقد
لا تجلين في داره مثل ما كنت تجدين في دار المأمور من الرأف ،
ولكنك ستجلين عنده ساعة وبسراً ، ودعاً في الخلق ، وتيسراً في
المعاملة ، فوجه كرمة النص ، وبناته صالحات لم يصدعن الذهاب إلى
المدارس ولا استقبال المعلمين . فهنا الرجل أمير بضم سانه على هذا
الصاد ، ويرسل أبنائه كلهم إلى القاهرة ليتعلموا فيها وليصيروا فيها
بعد موظفين كباراً كالمأمور والقاضي والمهندس وإذا أقل الصيف وعاد
هؤلاء الشبان من القاهرة امتلأ البيت فرحاً ومرحاً ، وأصحت أيام
الأسرة كلها أعياداً ، وازداد حظ الخدم من الرعد والسعة ولين العيش .
وأنا كثيرة الاختلاف إلى هذا البيت منذ استقرت هذه الأسرة فيه منذ

أعوام وأعوام ، وقد ربيت أبنائها وبناتها ، وقد تبنيت منهم واحداً
بعبته هو الآن شاب نقيب سيكون بعد قليل موظفاً كبيراً ، وهو يعرف
لي هذا الحق ويحبني ويكرمني ويؤثرني بالخبر والمعروف ، قلت :
ركبت تسيه ؟

قالت وهي تضحك . أنتهلين هذه العادة ؟ لقد أخذته حين كان
وليداً فأدخلته من بين ثوب وبيني ، أدخلته من حبي وأخرجته من تحت
دلي ، فأصحت كأني والدته ، وأصيح لي عليه حتى الأمهات وله على
حتى الأبناء متعلين في هذا البيت وترصين ، وسأراك كل يوم
إذا أصحت وسأراك إذا أمست ، فليس بين هذا البيت وبيننا
إلا خطوات ، وأنا أعمل فيه ساعات من نهار . وقد تحدثت عند لي
رة البيت معرفتك وعرفت أملك وأحتك وفلتك راضية مسرورة ،
فهل ما فقد تركتها على أن أعود بك إليها بعد لحظات ولست
أحس عليك أنها كرهت بعض الشيء استحداثك بعد أن خرجت
من بيت المأمور لما بين الأسرتين من مودة ، ولكنها لم تطلب نقداً عن
تركك عرضة لما يتعرض له الفتيات من الشر بعد أن عرفت أملك
وحدثت عشرتها . فهل بنا عهد تناح لنا أوقات طوال يكثر فيها بيتنا
الحديث .

وهبت معها وليس في نفسي ريب في أنها قد سمعت لي وأخطأت
في النصيح والود ، وفي نفسي بعض الأمل في أنها متعيني يوماً ما على
تحقيق ما أريد .

و حرق منى أو كاسى بين من في الدار من اناس وما في الدار من
الحيوان على خلافه ، و سحاح مصلى يحمى حيث يشاء ويستقرها
ثم يستقر هناك حاملاً معه أهله وآثاره ، ولا يحمى به إلا حجرة
أو حمرتان ولا تحمى إلا في مشقة ويكفى للجهل . وقد لا يكره أهل
الدار إذا اشتد القبط أن ينقو ماءهم تحت السماء قرصاً من القرة
أو الخموسة أو ما إليها . يصبون السيم حيث يخلونه ، لا يتكفون
في ذلك ولا يتصمون ، ولا يحمون في محالطة الحيوان حرجاً ولا أدى .
هي الحياة السهلة اليسيرة لعبة همت أن تتحصر وأن ترف ، فأخذت
من الحصار والترف محط ، ثم لم تستطع أن تتقدم فاكحت بما أحلت ،
ووقفت عند حد من الحدود لا تعدوه .

ولم أكد أنى ربة البيت ومن حولها بانها وخادماها يعملن وتعمل
معهن ، يتحدثن وتشاركهن في الحديث ، حتى أحست أنى
سأجد في هذه الدار راحة وتعباً ، وسألنى فيها نعيماً وبؤساً . وقد صدق
حسى ، سمعت في هذه الدار وثقيت . نعمت بهذه السداحة التي
ردتني إلى شيء يشبه حياتي في أقصى الزيف ، وخطئى بأهل الدار
كأن واحدة منهم ، وألعت ما بين السادة والخدم من الفروق أو كادت
تلتيه . ولكن أى حياة يموت فيها العقل أو يأخذ شيء كالموت !
لم آسف على ما فقدت من لرف ، ولعل لم آسف على ما فقدت من
صحة حديجة ، فقد امتياست من صحتها واتحدتها سواء أردت
أم لم أرد . لعسى حصي ، حررتها وإن رعت أنى كب أدافع عنها ،
وطلمتها وإن زعمت أنى أفندتها ، وانتصرت عليها وإن رعت أنى

وأقلت معها على بيت من بيوت الريف هذه شيء يظهر فيها الرأى ،
ويحس أهلها سعة العيش ، ولكنهم على ذلك لا يأخذون من نرف
الحصارة إلا بأبصره وأهونه ، تعصظين بما ألقوا من هذه الحجرة الربعية
التي لا دقة فيها ولا رقة ولا افتنان في إرضاء الدوق ، والتي تكره اسظام
وتعمر منه ، وترى في الترتيب والتسقي تكلماً وجهداً لا خير فيهما ولا
حاجة إليهما . بيت من هذه البيوت التي لا يكاد يدخلها الداخل حتى
يحس أن أهلها ميسورون ولكنهم فلاحون كما يقال ، فالمتاع كثير ولكنه
مهمل مضطرب لم ينظم ولم ينسق ولم يرب ، وإنما حمل إلى الدار ثم استقر
فيها كما استطاع أن يستقر .

والفرق فيها ملغى أو كالمغنى بين حمرات الاستقبال للسيدات وحمرات
الاستقبال للسادة ، مل بين حمرات الاستقبال وحمرات الطعام ،
إنما يستقبل أهل الدار حيث توجد المقاعد والكراسي ، ويأكل أهل
الدار حيث يتفق لهم أن يأكلوا ، إلا أن بطرقهم طارقي أو يلهم صيف
فيكون الطعام حيث يكون الاستقبال ، ثم يكون نوم الطارق أو الصيف
حيث يكون الطعام والاستقبال أيضاً .

في البيت مقاعد وكراسي ، ولكن أهل الدار يؤثرون الجلوس على
هذه الحصر والأبسطه قد ألفت على الأرض إلقاء . فإذا طرق الطارق
أو أقبل الضيف عرفت الكراسي والمقاعد أن لها في البيت منفعة وعملاً .

لم آسف لما فاتني من محبتها فلم يكن من ذلك مدّة ١ ولكن أي آسف وأي
حزن وأي لوعة وحسرة ، وأي ندم يذيب القلب ويملأ النفس كأنه
ويلاً هذا الذي كنت أحبه إذا أصبحت وأمست وقضيت الليل والنهار
بين عمل باليد أو حديث مع أهل الدار لا متاع فيه للعقل ولا لذة فيه
للقلب !!

أين القراءة مع جدبة . وأين القراءة متعة ؟ أين هذه الكتب
المرية وهذه الكتب القربية التي كنت أتمنى معها أكثر نهار ونظراً
من الليل قارئة أو متعة عما قرأت أو تنمية لاستشاف القراءة ؟ لقد
تركت هذا كله في بيت المأمور ، وأقبلت إلى بيت لا يقرأ من أهله
نقط ، إلا رب البيت ، فإنه يقرأ إذا أصبح . ويقرأ إذا أمسى ، وأنا
أسمع في الصباح والمساء ، وأكاد أحيط عنه ما يقرأ . وما يصيبي مما
يقرأ ! إنما هي أوراده وأدعيته ، ودلائل الخبرات . وأين أنا من هذا ،
وأين هنا مني !!

ولقد خرجت من بيت المأمور لم أستصحب كتاباً ، وما كان
لي أن أستصحب كتاباً ، وإنما كانت كلها كتب الخدمة . ولقد
سألت نفسي ألف مرة مرة أين يمكن أن أطلع بهذا الكتاب ؟
فليس في هذه المدينة من مدد الريف كتب تناع إلا هذه التي بعرضها
الطوائف في أيام السوق أو في يوم الخميس من كل أسبوع ، بعرضها
في السوق ويمرّون بها على الدور ، وليس لي فيها أرب ولا منفعة ،
إنما هي قصص لا تعجني ولا تروفي وسحر لا أحسه ، وصلوات
دينية لا أعرف منها قليلاً ولا كثيراً .

أين هذه الكتب المترفة ذات الطبع الجميل والحللد الأنيق ، هذه
التي تأتي من القاهرة والتي كنت أحد اللذة والمتاع حين آخذها في يدي
أو حين أطر إليها ؟ أحبل بيبي وببيها آخر الدهر ؟ أقضي على
أن أزد كما كنت فلاحاً من سات الريف تنفق مهارها في هذا العمل
الآتي الذي لا يكاد يفرق بينها وبين ما يحيط بها من السات والحيوان ؟
كلا ... !

هؤلاء فتيات الأسرة قد أقنوا من القاهرة ، وقد رأيتهم يفرغون
حقائبهم فما أكثر ما رأيتهم يستخرجون منها من الكتب ذات الأحجام
المختلفة المتباينة ، منها الصغرى ومنها النحيفة ، منها متفنن الطبع ومنها
ما أهمل طبعه إهمالاً ، منها ما حلد في عناية وما ترك على حاله التي خرج
بها من المطبعة ! ولكن أين من هذه الكتب ؟ وكيف السيل إلى النظر
فيها ؟ بل كيف السيل إلى الوصول إليها ؟ ها حدثني نفسي عما
لم تحدثني به قط ، فأبكرت حديثها ببعض الشيء ، ولكنني لم أليث
أن عرفتته وقتله واطمأنت إليه ثم صممت عليه تصميماً . وأي بأس في
أن أحتلس الكتاب اختلاساً فأطرق فيه وقتاً طويلاً أو قصيراً ، ثم أرده
إلى مكانه لم يمسسه بأس ولم يصبه مكروه ؟ أسرقة هذه ؟ أإنم هذا الذي
أما مقدمة عليه ، إن وجدت إلى الإقدام عليه ميلاً ؟ والله بشهد
ما سرق ولا فكرت في السرقة ، وما اختلست ولا فكرت في الاختلاس
إلا هذه المرة والله بشهد ما لمت نفسي على ذلك ولا أشعفت عليها
من نورط في الإثم أو تعرض للعقاب ، وإنما قصيب أسايغ غريبة
فيها مهاره لم أكن أعرف نفسي منها خطأ ، وفيها خوف وإشفاق ،

وفيها بين ذلك لذات لن أنساها . فكم حدثت أهل الدار ، وكم تغفلهم ، وكم اختلست الكتاب من هذه الكتب فأحبته بيني وبين ثوبي . ثم اتعرت به إلى حيث اتخذت لعمى مائماً لا أحتش أن يمس عليّ فيه ، ثم أخذت أقلب صفحاته وألقى عليه نظرات طويلاً أو قصاراً تعريفي به أو تصرفني عنه ، وأنا أحد هذه الضاحكة ولهذا الخوف ولهذا القراءة لذة غيرت حياتي تعبيراً وكادت تصرفني عن هذه الخواطر التي كانت تصاحب نفسي وتملأ قلبي وترسم أمام عيني بيت الأمور وبيت المهندس صورة حديجة وصورة هذا الشاب . نعم ! كادت هذه الحياة الحليمة تصرفني عن هذا كله ، لولا حديث سمعته وأنا أطوف بألوان الطعام وأقداح المساء على سادتي في ليلة من هذه الليالي . سمعت حديثاً عن الأمور اضطربت له نفسي واضطراباً ، ولولا أنني اعتقت جهداً عيباً لظهر هذا الاضطراب ولسقط من يدي ما كنت أحمله من آية ، فقد نقل الأمور من المدينة إلى مدينة أخرى في أقصى الأرض مما يلي البحر ، وكان هو الذي طلب هذا الثقل وصلى فيه وتوسل إليه بفلاں وفلاں . والناس يهيمون بأنه إنما فعل ذلك ليفر بابته من جوار المهندس الذي كان قد حطها ثم قطعت الحطة . والناس يختلفون ، فهم من يرى أن المهندس هو الذي قطع الحليمة لأشياء حدثت له ، فمهم من يزعم أن الأمور هو الذي رفض الحطة لما تبين من سوء سيرة هذا الشاب .

سمعت هذا واضطربت له ، وكطمت عواظي وأكرهت نفسي على الترام الاس والهلوه ما اضطرتت إلى غفلة ، فلما أتيت في المرة

أرسلت نفسي على مسجيتها فقصيت ليلة ساهرة حائرة مفكرة محرونة ولكن الصباح لم يسرحني أسفر معه للنفس أمل لا يخلو من حزن ولكنه أمل على كل حال ، من أجله أفقدت الأمر على خديجة ، ومن أجله خرجت من بيت الأمور ، ومن أجله نقيت نفسي في هذه الدار . فقد حلا الحول في المدينة ، وأصبح من المعكر أن تتصل الأسباب بيني وبين هذا المهندس الشاب ، وأصبح من الممكن بل أصبح مما لا بد منه أن يكون الصراع بيني وبينه ، فليعلم بعد وقت قصير أو طويل أذهب دم هنادى هدراً أم لا يزال على هذه الأرض من هو قادر على أن يظمر له بالثأر ويثني نفسه بالانتقام ؟

٢٠

وقصيت بعد ذلك أسابيع حائرة أشد الحيرة ، مرتبكة أعظم الارتباك ، تضطرب الخواطر في نفسي وتختلف وتردحم دون أن أقدر على تنظيمها أو أحدي منفذاً منها إلى هذا الحاضر الذي كنت أطلبه وألح في طلبه وأريد أن أطمئن إليه . فلم يكن بد من أن أتصل بخدمة هذا المهندس الشاب ، ولم تكن السبيل إلى ذلك ميسرة ، فأنا عاملة في هذه الدار لا أجد من أمها ما يزعجني عنها أو ما يضطرنني إلى مراقبتها ، وسكية عاملة عند المهندس ، لا تجد منه ما يؤذيها ، ولا يجد منها ما يصرفه عنها أو يزهد فيه .

وكنيت أحهد نفسي أثناء هذه الأسابيع لإجهاداً شديداً متصلاً

ألمس محرماً في من هذه الدار وغرماً لسكنية من تلك ، وأريد مع ذلك أن أحتب الشر والإساءة ما وجدت إلى أحدهما سبيلاً وكثيراً ما سمعت مائش يتحدثون أثناء العشاء أو أثناء العشاء عن سادته يسعى فيها كرمه ، وكان موطعاً في إقامته بعد ، وكان يريد أن يذهب أهله أن يتنقل في المدينة التي هي في الجبل من أهله سعدت موطعاً ، فكان يسعى في أن يبادل موطعاً في المدينة بأحد كل منهما مكان صاحبه وكان التراضى قد تم بينهما بعد أحد ورد وبعد معنى وإيجاج . وكان يسعى متصلاً في أن يرضى الحكومة عن هذه المدة . وكان الأمل يدنو حيناً من هذه الأسرة وبعد حيناً آخر ، وكان رب اسب . به حرصاً على تحقيق هذا الأمر أشد حرصاً وكثيراً حدث فيه ، وكان تصور أن يذهب بعد عاد إليهما بعد ذلك ، في أقصى الصعيد ، وكانا يمشيان به في أحاديث عرفة ، يستطعن في الآثام ويدكرن ما يجب أن يشترى من الخبز ، وسعدت به سعدت من نظام الدار إذا أقل هذا الشاب الذي تعلم في المدارس ويعود حياة البرق والشمس ، والذي يكلم الفرنسيه ويأمن في اللباس ، ولا يأكل كما يأكل أهل بدار حالاً عن الأرض إلى هذه المائدة مستحضرة ، علب هذه الضيعة الحاصية البيضاء في الأبدام لعديده ، وسبب ذلك الصبب القمراء التي لم يكن يوضع حتى يصرح إليها الصبا والشار سكتهم قراءه ما كان علب من بعض القروش قبل أن يرضى أحدهم علب رصاً فيحنى هذه القروش إخماء

هم ولم يكن يأكل بيديه كما يأكل أهل مصر . وإعما كان

مصططح هذه الأدواب التي يصططحها المرفون وكان سبه البيت وسيدته يتحدثان بذلك مسكرين له بأطراف الشهما معجيين به أشد الإعجاب في قلوبهما . وكان الشبان من أمائهما مسمون أحاديثهما هذه ويعرفون مسطحتهما بظهور وإعجابهما أحياناً ، فيسمون صامتين من أقام أروهم . فإذا أعرف لشأن امتلأت أفواههم بالصحك والطمع أحسنهم بالعداء ، وأهمهم نسمع هم ونصير إليهم ، مسكرة عليهم بطرف يسار معجدهم في أعماق النفس . وكنت أن أسمع الأحاديث كلها وأمرها وأضرب عنكر فيها . فهو من سبيل إلى أن تتم بين سكتة وبني مدته كهذه التي برد أن تتم بين من هذه الدار التي في أقصى الصعيد وهذا الموطط القمطى التي في أدنى الأرض ؟ !

ويكن كيف السبيل إلى تحقيق هذه المادلة ؟ بل كيف السبيل من حرصها على سكتة أو النحدث إليها فيها ؟ بل كيف السبيل إلى تعيل هذه المادلة لسكتة ؟ وما الذي يزعمها عن منزلها هذا الذي ظمئن إليه وسود فيه لا تكاد تدعى لأحد ولا تكاد تلقى من أحد ما ينقاه الخدم من السادة ؟ ما الذي يزعمها عن هذا المنزل ويحملها على أن تنتقل منه إلى هذه الدار التي لا حظ لها من ترف والتي ليس فيها هذا المهندس الشاب ؟ وهب سكتة حنت واطمأنت إلى مثل هذا العرض السخيف ، فكيف يكون تعليل ذلك لبيدها ؟ وكيف يكون تعليل ذلك لصادق ؟ كلا ! هذه أحلام ليس إليها من سبيل . وهما أجنده وهما أحاول فإن الشر لا ينال إلا بالشر ، والإثم لا يدرك إلا بالإثم ، ولن أبلغ هذه الغاية التي أتمنى إليها حتى أفنحم في سبيلها عمرات

وأقترف في سبيلها آثاماً .

لا بد إذن من بعض الشر ، ولا بد من أن أكر حتى أقصى عن هذه الدار ، ومن أن أكيد حتى تفصى مكيدة عن بيت المهندس الشاب . وما أسهل المكر حين ثبأ له النفس ، وما أسهل الكيد حين يطمئن إليه الصبير ! ومتى عجزت المرأة عن أن تنج من المكر والكيد ما تريد ؟ لن أجد في تحقيق ما أريد جهداً ولا مشقة إذا رصيت عمى ما لا بد من أن نرصاه من الشر . واستباح ما لم تكن تسبحه من الإساءة والإيذاء .

فأما مكيدة فأمرها مبسور . وإنما هي ريادة للناس وسرور له بعض المال ، واتفاق معه على أن يفسد الأمر على هذه عصابة ما وسعه ذلك ، حتى إذا انتهى منه إلى ما أحب وأحرحت مكيدته من ندر سعى إلى زفوة من قبل ميده يلتصق خادماً ، وبومئذ ...

وأما محر حتى أبا من هذه الدار التي أعين فيها ليس أسير مه ولا أهون . بعد دحيت دار ولم تكن في حاجة إلى . وإنما قضى أهلها وفقاً لي ، اعتصماً على وإحساناً إلى ورعدة لعهد أي . فإني عندما صلب ، أستطيع أن أرحل متى شئت . وأستطيع أن أقوم ما أحببت . عن أن ظروف الحياة لم تضطرن إلى أن تكلف الاستعداد في ارجح والتماس العلل والمعادير ، وإنما قصت بأن أخرج من هذه دار إحراجاً وأسد ما بدأ . وإلى لأذكر قصة ذلك الآن فأسمها انتساباً منزه العيان وأحب . وكثيراً ما ذكرت هذه القصة قل اليوم فاملاً قلبي حياً هؤلاء الناس وحياً إلى هذه السداجة التي كانوا يعيشون فيها والتي

كانت تصور لم أمورهم كلها في صورة الحد الذي لا يشبه جد ، والتي لا يتحدث بها الناس في هذه الأيام إلا صحكوا منها ساخرين إن كانوا قساة القلوب ، وانسموا لها عاضفين إن كانوا يقدرون الذكرى وعيون الحياة التي لا تكلف فيها ولا وياه ... !

كان شباب الدار يعكفون أكثر النهار على كتبهم هذه التي أقبلوا بها من القاهرة ، يقرعون فيها قراءة متصلة لا يكاد يصرعهم عنها شيء . وكثيراً ما كانوا يدعون إلى طعامهم فيسطنون ، وكثيراً ما كان إبطاؤهم يغيظ أباهم ويمثلوه بهم إعجاباً ولم حياً . وكان أهل الدار جميعاً ، ورثها أولم ، مقتنعين أشد الاقتناع بأن هؤلاء الشباب إنما كانوا يعكفون على هذه الكتب حباً للعلم ولإثارة للدرس وجداً في التحصيل ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بنشاط هؤلاء الشباب الذين لا يكفهم العمل طول العام الدراسي في القاهرة ولكنهم يعملون أثناء الراحة ويحرمون أنفسهم لفظة الرياضة والاستمتاع بشيء من العيم . وإنما هي الكتب إذا أصبحوا ، وهي الكتب إذا أمسوا ، وهي الكتب إذا آت لهم أن يقلوا بعد العناء . ما أشد فتنة العلم هؤلاء الطلاب الأذكياء الذين يحبونه أشد الحب ويأخذون منه بأعظم الخط ، ويريدون أن يبقوا فيه وأن يطعموا بالشهادات في غير إبطاء ، وأن يكونوا موظفين بعد ذلك يتقاصون المراتب في آخر الشهر ويؤدونها كلها أو بعضها إلى أهلهم !

وكان أهل الدار يحلون في هذه الأحاديث لذة ، ويطبقون خيالهم فيها إطلاقاً . وكانت سيده الدار تتمثل هذا كله وتنوّل في تحقيقه وتعجيله إلى الله بهذا الدعاء السادح اليسير الذي تجري به

ألسة أمثالها من أهل المدن والقرى ، وتكثر في الوعد بالنور المختلفة لهذا الشيخ وذلك الولي .

وكان رب الدار لا يكف عن التحدث بشايط أبنائه وعكوفهم على الكتب أكثر النهار وشرطاً من الليل ، حتى لقد كان ينيظ أصحابه ويملا قلوبهم حسداً ، ثم يتحدث بذلك إلى زوجه فيملا قلبها حوماً من الحسد والحاسدين . وكان هذا الرجل الطيب الكريم يحد لدة في أن يجلس الوقت من حين إلى حين ويشرح بمرصة حتى يغيب فيها أسأوه عن هذه العرفة التي رصت فيها الكتب رصاً فيسل إلى العرفة اسلاً كانه المص ، ويغيب أسم هذه المائلة أو هذه البراءة التي نظمت عليها الكتب نظيماً ، ويلقى على هذه الأسفار بطرات ملؤها الإكثار والإحلال ، وقد يحد هذه في تحفظ وحياط إلى هذه الكتب فيمسح مسحاً رقيقاً ويمسحها مسحاً يسيراً ، كانه يتركها ويتمسح عندها ما ينتميه عند الأولياء والقديسين إذا لقيهم أحياء أو زار مودوم أمواتاً .

وقد يدفعه حب هذه الكتب وكلمه بها وحاحته الشديدة إلى الاستطلاع إلى شيء من الجراءة ، فيأخذ كتاباً منها وينظر به ليحفظ عنوانه وليتحدث به إلى أصحابه إن خرج إليهم ، أو ليقرأ به سطرأ أو أسطرأ بعهمها أو لا يفهمها ، وهو يؤثر فيها بين وبين نفسه ألا يفهمها ، وذلك أدنى إلى الإعجاب وأشد إمعاناً فيما ينبغي للعلم من العزاة والارتفاع عن عقول العامة والجهلاء ، وهو أدنى إلى ما ينبغي من الإعجاب هؤلاء الشبان الباشقين الذين يعرفون ويفهمون ويسمعون ما لا يعرف

أناهم ولا يفهمون ولا يسمعون . وكثيراً ما كان يظهر هذا الرجل مبلاً فيه كثير من الحياء والردد إلى أن يحدثه أسأوه معص ما يفرعون ويعطوه شيئاً من هذه الكور التي يملأون بها قلوبهم وعقولهم إذا أصبحوا وإذا أمسوا ، ولكنه كان شقياً دائماً لا يكاد يلمح لأسأته ببعض ذلك حتى يجد منهم تموراً وازوراراً ، فيصطر إلى الصمت والرمسا عما هو فيه من جهل وحرمان . وكثيراً ما كان يتحدث إلى زوجه سحر العلماء وصهم بالعلم وإثارهم أنفسهم بلفاته وتمراته ، يتحدث بذلك مثلاً محروماً أو ثائراً معصياً ، فتعزبه زوجه وتهدئه وتزعم له صادقاً أو متكلمة أن العلماء إنما يبحثون بالعلم على غير أهله إكراماً للعلم وإشفاقاً على الجهلاء من أن يشق عليهم ما يسمعون ، فيقبل منها ذلك أو يجادها فيه .

وكذلك كان هؤلاء الشبان وكثهم يمكن الإعجاب والتعديس من هذه الأسرة الساذجة . ولكن الدار اضطربت ذات يوم أشد الاضطراب ، وفقد فيها أو كاد يفقد كل شيء ، وقضى أهلها يوماً معصاً كله شر وبأس ، وأمل حائب وطن كادب . وكنت أنا مصدر هذا اللاء ، فكفرت بخروحي من الدار عما جيت من صيته ، وما كان أسعدني بهذا الخروج ! ..

ولم أكن أقل من صاحب البيت كلياً بالاسلال إلى عرفة الكتب والطر إليها والقراءة فيها ، بل كنت كما قدمت أتجاوز خط صاحب البيت من هذا كله فأحطس الكتب اختلاصاً وأحسب بيني وبين ثوبي ، وأحبو إليها في حيث لا أرى ساعات تقصر أو تطول ، ولكن كنت تمتلئ دائماً باللذة والمتاع . وكنت قد لاحظت كتاباً دميم المطر فييح الشكل ، ردى الطع والورق ، يعكف عليه هؤلاء الشبان عكوفاً منصلاً ،

يستبقون إليه استباقاً ويتنافسون فيه تنافساً ويشدد اختصاصهم فيه ،
ثم ينهون إلى أن يتفقوا على أن يتداولوه فيما بينهم لكل واحد منهم وقت
معلوم . فلدغت إلى أن أعرف هذا الكتاب وأتتبع ما يخفيه شكله
الديم وطبعه الرديء وورقه الخثير وجلده المبتلل البالي ، من هذا
السحر الذي تغلب هؤلاء الشباب ودفعهم دفعا إلى الهالك عليه والتنافس
فيه . وكثيراً ما التفت هذا الكتاب فلم أجده قريب المثال بين هذه
الكتب المرسومة المروضة ، فتبينت أن هؤلاء الشبان لا يكادون يفرغون
من النظر فيه حتى يخفوه إحصاء . فلم يزدني ذلك إلا كلفاً به وتعباً له
والخاسراً في البحث عنه . وأعلم ذات يوم أن هؤلاء الشبان مدعرون إلى
الغلاء ، وأن العرفة ستخلو لي ساعات من نهار ، وأنى سأستطيع أن
أبحث عن هذا الكتاب ، وقد أقسمت لأحدثه ولا أنظر فيه ولا أقضيه
معه أطول ما أستطيع أن أقضي معه من الوقت .

وقد انصرف الشبان إلى ولعهم ، وتخصعت من أنفال ما كان على من
عمل ، فاسللت مسرعة رشيفة مربعة الشاط إلى العرفة ، ووضيت في
البحث غير قليل ، وإذا أنا أطعم بما كنت أبتغي . فباللهجة
وباللبطة ، وبالسعادة وبالرصا ! هذا الكتاب بين يدي دميم
الصورة قبيح الشكل خثير الورق رديء الطبع ، ولكن اسمه « ألف
ليلة وليلة » . وأنا أقرأ فيه وأنا أمضي في القراءة ، وأنا أنسى نفسي وأسى
مكاني . ولكن ماذا أسمع ومادا أرى ؟ هذا باب العرفة يفتح في
غير احتياط ، وهذا رب امدار يدخل ! فقد كان مثل يتطر أن تحلو
له العرفة ليقف من هذه الكتب موقف الإكبار ، ولينظر إليها نظرة
التقديس ، ويحمد إليها يده ملاحظاً مداعباً ، ثم ليقرأ من أسماها وسطورها

ما يسر به أصحابه إذا خرج إليهم آخر النهار . ولكنه يراني أنصرف في كتاب ،
وي كتاب لم يتعود أن يراه ! فهو يسألني ماذا أصنع . وما أنا وهذه
كتب ؟ وأحاول أن أشرح له الكتب التي كنت أنصرف فيه ، ولكنه قد
سرع فاحده من يدي ، ثم رحلني رحلاً عيباً وطردني من العرفة طرداً .
على أنه لم يبق مقام في هذه العرفة ، إنما خرج منها بعد قليل
ثامناً سحطاً ، وأقبل على روحه في يده هذا الكتاب فأنقذه في وحدها
إلقاء ، وأندفع في غضب لا حد له وفي شتم لا ينهي
سحطاً على روحه لمسكينة وعلى أسائه لاسنين ، صاناً عيباً ندرأ
متصلة بالكوارث والأحداث ، معنأ بها في عطف عيب مرة وفي حزن
نيم مرة أخرى ، خيبة أمله في هؤلاء الأساء الذين كان يصبرهم محبين
للعلم مؤثرين له متهاكبين عبيه ، فإذا هم أصحاب عث وفو وجون ،
وإذا هم ينفقون وقتهم في قراءة هذا الهديان . ومن يدري ! لعلهم ينفقون
وقتهم في هذا أثناء إقامتهم في القاهرة على حين يصر هو أنهم يحلون
ويعملون ويحصلون العلم . وهو إذن إنما يحد ويكد ويهق حبه وماله
يمضي أساؤه في هذا السحف وفي هذا اللهو الآثم القبيح . وهم لا يصعبون
وقتهم وجهدهم وحد أبيهم وكده وماله وأمله محسب ، ولكنهم يحزنون بيت
أبيهم بأبيهم كأنهم يحفلون أن هذا الكتاب لم يدخل بيتاً إلا حربه تحريماً .
ثم يعود الرجل إلى عرفة الكتب فيقف كل ما فيها تقيماً ، وما
يزال يبحث حتى يظفر بأجزاء الكتاب كلها ، ثم يعود بها متصراً
ساحطاً معاً ، ثم يمرقها تحزيفاً ، ولا يطمئن حتى يشعل فيها النار !
وقد نقص يوم الأسرة كله فلم يذق الرجل ولا أهل الدار فيه طعاماً .
وعاد الغيبان آخر النهار ، فلا تسل عما سمعوا ولا عما رأوا ، ولا

عن صمتهم حين صمتوا ولا عن قولهم حين قالوا . ولكن التبيحة الأولى والأخيرة فيها أظن هذا كله هي أنى طردت من الدار طرداً . ورجعت إلى بيت زبونة وإلى عرفتها ، فقصبت فيها أماسيع أنظر ما يجرى به القضاء ، وما تنهى إليه حيلة الستاني الذي خضع له الآخر

٢١

« متعلمين إذا كان العدد يا آمة ، وستعمين عملاً برصيك كما لم برصك عمل من قبله قط . لا تذكرى بيت المأمور ، ولا تذكرى بيت فلان هذا الذي دعيت الحماقة فيه إلى هذا الدب العظيم . متعلمين عملاً مربحاً فيه مال كثير ، ونعيم كثير ، ومتاع كثير . متعلمين . . . متعلمين وستعدين . ليتنى كنت مكانك ، ليت منى تعود إلى حيث أتت من العمر . متعلمين وستعلمين . . . »

قالت ذلك وهي مضطربة أشد الاضطراب ، منهجة أشد الانهاج ، يدهمها الفرح والمرح إلى أن تأتي حركات مختلطة فيها الرقص والقفز ، وفيها الحد والمهل ، وفيها الدعاء التي ليس بعدها دعاء والمجون الذي ليس بعده مجون . حركات على الوجه ، وحركات باليدين ، وحركات في الجسم كله مجتمعاً وفي أعضائه متفرقة . حركات هي إلى الحنون والاختلاط أدنى منها إلى المرح المعتدل الذي يصدر عن نفس مرحة وعقل متزن . ولم تكف زبونة باضطرابها هي ، وإنما انقضت على انقضاضاً ، فقلتي وأهصنتي وراقصني ودارت في حول العروة دوراناً متصلاً سريعاً حتى انتهت في وسعها إلى السقوط . كل ذلك وهي مندعة في حركاتها وأحاديثها ، لا تمكس من أن أقول كلمة أو أنطق

بحرف أو آتى من الحركات غير ما تريد . قد امتحالت إلى جنية وأصحت العروة ميداناً لا يضطربها اعتلاط الذي لم يقف ولم يهدأ إلا حين أسقطها الدور وأسقطني معها على الأرض وحير أفاقته منه بعد قليل . . . هات استطعت أن تتكلم كلام العاقبة . واستطعت أن أسمع لها وأن أفهم عاب . فعدمت أن أهدس في حادثة إلى خادم . وأنه قد أرسل يتقدم لي في أن تمشي له هذه الخدم ، وأنه يسمعها على دمت أحرأ بعنف باحلاف الخادم التي مودعه إليه مع الصباح إذا كان بعد . وهي منهجة في وهي منهجة . . . في أكثر . قدمت حد شرب من حدم . . . في أكثر . قدمت منه أحر ما قد كنت ! وكيف لم يقدم . . . يوماً من لأمر . . . في . . . في مثل ما من حال بوجه . وحذل بحد . ورجاحة العنق . وفي . . . وأعلم عما حات سائر منهن . سيكون أحرها مصراً . . . في . . . في كلها في هذا البيت وأبني . . . في . . . في هذا الشاب المتروك اعني لوحد . من زبوني سيده الدار . . . في . . . في خدم الدار سأكون وحدي صاحبه . انصت من بيت . . . في . . . في الشاب وعلى فله إن تحت . فقه مناح من نفس . . . في . . . في ولا سبيلاً عليه

فك . . . في وأرسلت شبيهاً مرسع . وشحيرها المنكر . وصححها . . . في . . . في ثم عصبت على وصصني . . . في . . . في وهي تقول . . . في لأعصت وأحصدك معاً . أنصت لأن . . . في . . . في وأحصدك لأن أود لو . . . في . . . في وأحصدك بالسلطان على . . . في . . . في البيت من نعيم .

وأن أسمع منها وأسم لها وأرقبها . فلا أشبه بأن قد دبرت لهذا اليوم تدبراً . وأعددت له إعداداً . وشربته . . . في . . . في وانتظرت مقدمه وثقة

بأنه سيقدم ، مطمئنة إلى أنه سيحين . ولم أظهرها على هذا كله ، وأمرى كله في حاجة إلى الحزم وفي حاجة إلى المكر والكبد .

نعم ! لم أنبأها من هذا كله بشيء ، ولم أنبأها حين أصبحت باني لم ادق اليوم لحظة في هذه الليلة الطويلة التي فرقت بين نفسيين ، وإنما قضيت الليل كله بقطعة ، أفكر في أمس البعيد وأفكر في اليوم ، وأفكر في غد وفيما بعد غد ، على حين كانت تعلم بما ناعت وما ستيع من حب ، وبما أحدثت وما ستأخذ من أجر ، وبما دأقت وما بقي لها أن تذوق من لمر ، وعلى حين كانت أحلامها هذه المختلفة تدعو جسمها إلى أن يأتى حركات مختلفة ثلاثتها ، وتدعو لسانها إلى أن ينطق بجمل متقطعة مختلفة توافقها . وكنت أرى ذلك منها وأسمعه ، فأرئى لها وأرئى لنفسى أيضاً : أرئى كما في حياتها هذه الصغيرة الحفيرة التي خلقت من كل حس دقيق ، أو شعور عفيف ، أو تفكير عميق . وأرئى لنفسى من حياتي هذه المضطربة التي يملؤها الحس والشعور والتفكير ، وتفعمها الأحداث والخطوب .

نعم ! قضيت الليل كله مؤرقة . وليس من شك في أنه كان طويلاً ، وليس من شك في أنه كان ثقيلاً لو فرغت له ، ولكنني شغلت عن الليل ببنات الليل . شغلت عن طول الليل ونقله بصورتك أيتها الأخت العزيزة البائسة هذه التي لم تكذ تحس أني خلوت إلى نفسي حتى ترامت لي ، ثم دنت إلى ثم استقرت مني غير بعيد ، ثم أخفت تحدثت إلى نفسي حديثاً أعقله ولا أسمعه ، وأحد له في قلبي وقهاً لا ذعاً حلواً معاً . صورتك هذه التي رأيتها كما كنت أراها حين ذهبنا إلى القرب ، وكما كنت أراها في بيت العمدة قائمة تحت السماء ذاهلة لا تحس شيئاً ولا تلذت

إلى شيء . وكما كنت أراها حين كنت أسهك إلى نفسك وإلى مكاني منك . وحين كنت أتحدث إليك وأستمع لك . وحين كنت أواسيك وأعزبك وأحندي أن أفيض عليك السكينة وأشيع في قلبك الأمن والهدوء ها أنت دى تسعين إلى وتحلسين إلى حاسي ، وهذا رأسك قد مال حتى استقر على كفى ، وهذه يدي تلاطف حنك وتبيلها دموعك المبهمة الصامته . وها أنا ذى أحلى بيك وبين البكاء حياً وأمضى معك فيه ، ثم أثوب إلى الهدوء وأردك إليه . وهذه يدي تلاطف شعرك العزيز ملاطمة متصلة حتى يمسكك الأمر ويوشك اليوم أن يهجم عليك دراغيه . ولكك نهضين ونذهبين . ثم تعودين لي بعد قليل واحدة ثم مروعة ، وأنا أستقبلك رفيقة بك مهلة لك . وهذه الأشباح الحمراء تترأى لنا كما كانت تترأى لنا في بيت العمدة قل أن نأخذ في هذا السفر الأثيم ، ولكك لا تكادين تزين هذه الأشباح الحمراء حتى تهيى وتنهض إليها ، وتستحيل إلى شبح أحمر بين هذه الأشباح الحمراء ! وها أنتن أولاء تظفن بي وتصطرن من حولي وتستقرن إلى أدنى تردن أن تلقين فيهما ألوان الحديث . وها أنا دى مروعة مفاجئة ، أرى الحسون وأشفق منه وأهم أن أصبح ، وأذكر مكاني في دارنا تلك في أقصى الريف نحو الغرب أثناء العسة . وها أنا ذى أرى اليسوع الكريه يتصحر منه ذلك الدم العزيز . وها أنا دى أنهض حائمة مولدة ، أريد أن أفر من هذه الغرفة ، ولكن إلى أين ؟ !

نعم ! إلى أين والليل ساكن حاتم ؟ وأين نستطيع فتاة مثل أن تذهب والليل ساكن جاثم ؟ لأوقظ هذه المرأة التي تحتلف عليها الأحلام وتنعم بلدة اليوم في ناحية من نواحي هذه العرفة . لأوقظها ولأفصين

ثم يقبل آخر الليل ولم يكن يقدر أني سألقاه قائمة باسمة . أقبل إلى في ظلمة الليل يسمى كأنه الحية أو كأنه اللص . ولكنه لم يكذب يبلغ باب الغرفة ويتبين شخصي مائلا في وسطها وعلى وجهه ابتسامة شاحبة كأنها ابتسامة الأشباح ، حتى أخذته شيء من الدهر ، فراجع خطوات ثم قال في صوت أبيض حمل بأحد لونه الطبيعي قبلا قليلا : سنا ؟ ألا تزالين ساهرة إلى الآن ؟ أنعلمين أين أنت من الليل ؟ قلت : لقد حاوِزت ثلثيه . وما كان ينبغي لي أن أنام قس أن ينام سيدي ، فما يلزمني ! لعله يحتاج إلى شيء .

قال وقد عاد إليه ثنائه وهلهو نفسه . واسترد صوته شيئا من قوته المألوفة ودعائه لبعضه . ما رأيت قبلك حادما مثلك تحسن العناية بسيدها وتسهر منتصرة لمقدمه إلى آخر الليل . لقد كنت أحسبك بائنة كما تعودت أن أرى من سقك في خدمتي . وكنت أقدر أني سأجد في إيقاظك بعض الجهد ، فليست أدري ما بال نوم الخدم يتقل حتى كأنهم أموات ! قلت . فقد أرحت سيدي من هذا الجهد ، وانتظرت مقدمه كما تعودت منذ اصطفت حكمة المترفين الذين لا يحبون إمداد الليل في دورهم ، فلبأمر سيدي بما يريد . قال وهو بصححك ضحكاً سنجماً وقد مد إلى يداً وددت لو استطعت قطعها ، ولكن تراجعت حتى لا تلعني فإن سيدك يأمرك أن تنجيه . ثم انحدروا إلى عرفتكم ومضيت في أثره .

وصلق المسكين أني كنت أنتظره . ولو قد تعد إلى قلبي واستمع لي أحاديث نفسي لعرف أني لم أكن أرقه في انتظاره ، وإنما كنت أسامر أشباحاً حراء لو رآها ملئ قلبي رعباً ولولئ منها فراراً . ولكن لم ير إلا إياي ، ولم يفكر إلا في ، وما له وللأشباح الحمراء !

وعدت إلى عرفتكم بعد ساعة ، راضية عن نفسي كل الرضا ، مطمئنة إلى قوتي كل الاطمئنان ، فقد بلوت الحصم ولقيت العدو في ميدانه الذي اختاره هو ، وكانت بيني وبينه مقدمات الصال . فلم أضعف له ، ولم أشفق منه ، وإنما ثبت له ثباتاً ، ثم انصرفت عنه وقد علقته بين السخط والرضا ، ووقته بين اليأس والأمل . لم أجد في شيء من هذا كبير مشقة ، ولم أحتمل في شيء من هذا عظيم عاء ، وإنما هو الابتسام المطمح المفري ، والاحتشام الذي يقل العرم ويثبط الحزم ، ويسيطر سلطان الحياة على العس فإذا هي ترند بعد امتدادها ، وعلى الوجه فإذا هو يظلم بعد إشرافه .

وقد كنت أقدر أن المعركة الأولى ستكون عيبة يملؤها الهول ، ويحدث بها الخطر ، وتنتهي إلى الفصل فيما يكون بيني وبين هذا الشاب فإذا ضعف واستثار ، وإما قوة وانتصار ، بشعبي الطرد العيف من هذه الدار . ولكني ملكت أمرى وملك هو من أمر نفسه ما جعل المعركة الأولى مقدمة لا حاتمة ، وما أحل الفصل في هذه الحصومة إلى أحل طيه قريباً ورأيت بعيداً . وقد انصرفت عنه بعد أن أعتته على بعض أمره وهيأت له ما يحتاج إليه ، وتركته كاسف الدال بصهر الرضا والابتهاج ، وهو يقول . لا بأس ! إنك في حاجة إلى التربية والتفري .

ولم أكد أثوب إلى عرفتكم وأعلق بها من دون إعلاقاً محكماً حتى تراءت لي أحنى وهذه الظلال التي ترفقها . كأنك كنت ستعزني ليعلم علي وليسمن نأ ما أليت مع الحضم من بلاء . وقد هممت أن

أحدث إليهن ، وأنص عليهن ما سمعت وما رأيت ، وما علمت وما آيت .
ولكن ماذا ؟ ليس ينظرن إلى نظراً قصيراً ، ثم يلعبن في وجوههن الشاحنة
ابتهامة الرضا ، ثم يستحجن استخفاء كأنما ابتلعهن الظلام ابتلاعاً .
وكنت أظن أني سأنتظر معهن مطلع الفجر ، صامرة كما كنت أثمر
منذ حين قل أن برق إلى سيدي كأنه اللص ، ولكنني ألتهمن من
حولي فلا أرى لهم محصراً ولا مظهراً ، وألتهمن في نفسي فلا أظفر
مهن شيئاً . لقد غبن عن عيني وغبن عن نفسي ، وكأنهن أمرن
الذكرى أن تنسهن ونمسي إلى حيث مضين . فإنا أريد أن أذكر
فلا أستطيع ، وأريد أن أذكر فلا أحد سيلا إلى الصكبر ، وأنا آوى
إلى مصحبي وقد كنت أزمعت ألا آوى إليه . ولكن القوة الدنية حدة ،
ولكن للتع سبطاً هو بامسطه ، وغاية هو بالعبا . ولقد قضيت ليلة
لم أدق فيها النوم ، وهذه الليلة الثابتة قد انقضى أكثرها ، وكادت نوالى
نجمها تنمور ، فلا بد إذن من بعض الراحة سواء أرضيت أم كرهت . . .

ومن أجل هذا هارقتني أينما ألححت العزيرة ، وهارقتني معك هذه
الطلال الحمراء إنك لرفيقات في شعيرات على . وما بممكن من
دنت وأنا عندما تُردن ، لم أهي ولم أصعب ولم أنهم لهذا العدو
الماكر القوي ! ليت شمري ! أكتنن ترهقني ، ونشقق على ،
وتنصرف عني وتحبين سبي وبين النوم ، لو أني خالفت عن أمركي
واستحسنت أو أصهرت الاستحانة لملك الدعاء الغيظ الذي كان يرسله
إلى سيدي بالعين واليد واللسان ؟

على أن الأمر بين سيدي وسبي لم يلبث أن تعسر بعد بسر ،
وتعقد بعد سهولة ، واشتد بعد لين فلكل شيء أحسن ، وبصر أمد
ينتهي إليه ، ولمطاوله عاياه تقف عدها ، ونيسرة حبر لا أن تستحيل
إلى ضعف وإدعان وما ينعي لسيدي أن يصهر مصهر الضعيف
المدعس لحادم مثلي ليس هذا حول ولا طواف . وهي لا تترك ركن
شديد ، ولا تعتر بقوة تحميم من بأس وتعميمها من سلف ، وإدع
هي كلمة منه تغيبها في دارة عريضة مكررة أو تخرجها من هذه الدار
دليله مشردة . وقد علق سيدي هذه الكلمة في حروف لسان أبيه وأبيه .
يهم بأن يرسلها حتى إذا بلغت شفيتها وكادت تتحاربهم إن أمروا
بمحسها إلى ردت إلى مكانها واستقرت في موضعها من طرف اللسان
استقراراً وأطلقت شدة من حوتها إطباقاً .

ومدت لي أسباب الفء في هذه الدار يوماً أو بعض يوم ريثما
يخرج سيدي لبعض شانه ، ثم يعود فيدعوني إلى ما كان يدعوني إليه
في هذا الإلحاح المتصل ، المصحك المحزن ، الذي يقصد على الرجل
أمره ويظهره قوباً كأنه الليث وضعيفاً كأنه الفأر . عريراً كأنه السيد
ودليلاً كأنه العمد ، وبطلق لسانه بما شاء له الهديان من هذه الكلمات
الجوفاء التي يملؤها الاستعطاف حين تكون بديراً ووعيداً . وبماؤها
المكر والكيد حين تكون استعضافاً واسترضاء ، ونصور دائماً تقيض
معانيها الباطنة ، وتعد دائماً عما لم يرد صاحبها إليه ، ويملاً بطرائفه هذا
الشرر المهرق حباً ، ثم هذا الانكسار الدليل حباً آخر ، وبمعله بدور
حول غايته التي يشتهنها وأمنته التي ينميتها ، كما يدور العائد حول

الصنم ، وكما يدور اللص حول البيت يتمي ثغرة ينزل منها إليه !
 نعم ! كذلك كنت ألقى صيدى مع الصبح باسمة مشرقة الوجه ،
 أحل إليه قدح اشاي وبعض اعاكهة قبل أن يثب من سريره . وقد
 كان صيدى يحيا حياة الإنحيز ، فلا أكاد أدخل عليه حتى ترتفع إلى
 عيناه وقد ملأتهما عواطف شديدة الاختلاف ، ومعان عظيمة التناقض ،
 فيها الحب وفيها النعص ، فيها الأمل وفيها اليأس ، فيها الوجد وفيها
 الحوف ، فيها الشهوة وفيها الزهد ، فيها القرب وفيها البعد . وأنا أرى
 هذا وأحسه وأهمه ، ولكن ، يا لقوة النساء ! إلى لأقبل عليه بالاشاي
 والعاكهة واتحيه كأنى لا أرى شيئا ، ولا أحس شيئا ، ولا أهم شيئا ،
 ثم أنصرف عنه وفي نفسي ما فيها من الرضا ، وفي قلبي ما فيه من الإشفاق ؛
 فقد كنت راضية عن نفسي وساحطة عليها ، وقد كنت شامنة في
 صيدى ومشفقة عليه ، وقد كنت أرمى نفسي ما أنا فيه من الإطماع
 والامتناع ، ومن القرب والبعد ، لأعذب هذا الشاب الذى قتل أختي .
 وكنت أنكر على نفسي هذا كله ، وأراه لعنا بالنار ، ونكلنا للشر ،
 وإماننا في الإثم . وقد كنت أرى أنى قد حلفت لنفسي حوا من الرذيلة
 أعيش فيه إذا أصبحت ، وأعيش فيه إذا أميت ، وأنفس هواء
 المنكر ، وأبعث فيه ممتا رعاما . فما هذا الكيد الذى أكبده ؟ وما هذا
 المنكر الذى أمكره ؟ وما هذا التعكير الآثم الذى أملا به رأسى وقاى ؟ !
 أصبح فأفكر في هذا الشاب لأعويه وأصبه وأنعص عليه يومه ، وأمسى
 فأفكر في هذا الشاب لأدبه وأفصيه وأؤرق عليه ليله ، وأنا فيما بين
 ذلك لا أبعث فكر فيه ، عاصنة مرة . وصادفة مرة أخرى ، لينة
 حيناً وقاسية حيناً آخر .

هذا كثير ! وأكثر منه أن نمرع له فتاة كادت تستطيع أن نمرع
 لما هو أظهر منه وأبقى ، وأكثر من هذا وذلك أن يستسلم هذا الشاب

لما بعمره من ضعف . ويتورط فيما يث حوله من شاك . ويتعلق
 بفتاة مهما نكر هو ليست شيئا . وأحببت غيرها كثير يستطيع
 أن يتمسك منى شاء وكيف شاء . وثى شيء أسير من أن يرسل
 ستاره إلى دونه أو إلى امرأة أخرى من أشبه زبونة . فلا يتقصى
 اليوم حتى تكون هذه فتاة أو فتات يحتر من يمين من يشاء ! في
 كثر هؤلاء الفتات اللاتي يتمسك العمل في المدرسة قد بشأن فيها أو
 يتحدثون إليها من الريف كذا الحديث يا مداعوم ، ولكن نفس الإنسان
 ضعيفة حتما ، وفوية حقا . لقد فقت على نفس صيدى كذا فقت
 على عبرى تنمى عندي الحب ولداته وآثمه . فلما وجدت منى امتناعا
 عبه وصدودا عنه وصورا مدحا منه . أعرضت عن الحب ولداته وآثمه ،
 أو أرحأت حب ولدته وآثمه وتعلقت بى أنا ، تريد أن تقهرنى وتغشى
 على أمرى وتتصر على ، وتظفر منى بما تريد .

صيدى لا يصيب عندي الآن حس ولا لذة ولا إثم ، وإنما يطلب
 إلى حصونا ويدعنا وسنلاما . هو يريد أن يتصر لا أن يتم .
 ومن يدري ! لعله ، بما يؤخر إقصائى عن دره حتى يتم له النصر .
 وتحقق له الفوز . فيجرى دليبة صاعرة قد آمنت له وأدعت
 لسلطانه ! ويكنى أن يحضر لى هذا الحادار وإذا أنا منته متعلقة بالعباد ،
 ملحة في الخصام ، قد سبت الانقام أو كذب أساء . وأعرضت
 عن أحنى وصلات الخمر أو كذب عرص عهن . ولم أتمل إلا سدوا
 يريد أن يقهرنى ، ولابد من أن تقهره ، وسيبدأ يريد أن يسطر سلطانه
 على ، ولابد أن أبسط سلطاني عليه .

وكذلك اتصلت حياتى في هذه الدار هادئة في ظاهى الأمر
 مصفرة أشد لأصعاب وأعصمه كرا فى حميفه الأمر . أتى صيدى
 باسمة ويبقى ساجدا . ثم لا يتصل اللعاب بينى حتى يسحيل الانشام

لذ عبوس ، والرمد في مخط . وإذا هو يدعو قائل . ويلج في الدعاء
فألق في الإباء ، ويرى فأرتفع عن الإغراء ، وينزل فأستخف بالسدير ،
ويستطف فأقو على الاستعطاف .

ثم - يا للهول ! ماذا أرى ؟ وماذا أسمع ؟ وماذا أجد ؟ هذا مبدى
مائل بين يدي يتلعف ويتفرق ثم يستصعب ويستجلى ، ثم هذا هو
جائياً بين يدي كأنه يتقدم إلى بالصلاة ، ثم هذا هو باكياً في صمت ،
ثم هذا هو محبباً ، سكاه ، وما أن دى أكاد أضعف وبكاد يأخذني
الإشفاق لولا أن أجمع قوتي كلها ونفسي كلها وأدعو إلى أخوتي وطلأها
الحمراء الخمس منهن ، وأستمد من قوة إلى قوة .

وأضيق من ذلك فيما كنت في الإباء ، ثم ينشئ الأمر يسا
إلى شيء . يشد البردة ، وإذا أنا قد أحلصت له ولعبي وإذا
هو قد أحلصت في دمه ، وإذا نحن نتحدث في هدوء وأمن واستقرار .
فلما هو هذا السبب اليأس وعجز عن احتمال . وأما أن فأهمل عليه
الأمر محضه مرارة وأزين له الانصراف عنى إلى من أحب وما أحب
من الخليلات والدم والدماء ، وإذا نحن نتفق على أن نفرق ،
وإذا هو ينصرف عنى على ألا يراى في الدار إذا عاد إليها . وأنا أقبل
ذلك راضية عنه سعيدة به ، فقد شئت هذه الحرب وضعت عن
هذه الخصومة ، وكرهت هذه الحياة التي تملؤها المطاولة والمحاولة ،
وتثقلها المهاجمة والمقاومة ، وفنعت من العنينة بالإياب أو بشيء . حبر
من الإياب . فسأخرج من الدار طائفة بعض الشيء . أليس قد عجز
هذا الشاب الخليل الوهم المتدرف المعنى القوي أن يبلغ منى ما بلغ
من أمثالي ؟ أولست أخرج من هذه الدار وقد جرعت مرارة الهزيمة
وعلمته أن من فتيات الريف الساذجات الغافلات من يستطعن الثبات
لأمثاله والامتناع على أصحاب الذكاء والجمال والتدرف والحناء والبراء ؟

ولقد انصرف عنى هادئاً وقد أظهر الرضا ، وفرغت لأمرى أسياً للرجل
مرمعة ألا أرى زنوبة ولا ألقاها هذه المرة ولا أقيم في المدينة ولا أعود إلى
أقصى الريف ، وإنما آخذ قصاراً من هذه القطارات التي تمضي إلى
الشمال نحو القاهرة ، أو إلى الجنوب نحو عاصمة الإقليم ، فأرض
الله واسعة ورزق الله ميسر من تنعاه . وما أنا دى قد حزمت أمرى
وحملت متاعى الخفيف وصممت أن أخرج . ولكن البستاني موكل
بالدار بمعنى أن أخرج منها ويحول بيني وبين الباب ، وينبئني بأن سيده
ألقى إليه أثناء انصرافه أمراً حارماً صارماً أن يحول بيني وبين الطريق ،
وأن بتكلف ما يستطيع وما لا يستطيع بمسكني في الدار حتى يعود .
وإذا علم يكن حادثاً حين اتفق معى على أن نفرق . وإذا علم يكن حادثاً
حين أظهر الهدوء ولا راضياً حين تكلف الرضا ، وإنما كان ماكرأ
مخادعاً . ومن يدري ! لعله كان صادق العزم خالص الرأي ، فلما
انصرف عنى تمثل الهزيمة وتمثل آثارها وأعقابها فأبت عليه نفسه أن
يرسل هذه الفتاة ولا يخضعها لما أراد .

وقد استيأست أو كدت أستبئس من ذلك الخاطر الذي كان
يعينى أول الأمر على المقاومة أو يعربنى بها أو يدفعنى إلى الإغراء
والإطماع ثم إلى الإباء والامتناع . فقد كنت أعتقد أن لهذا الشاب
في أربأ . إنه يشئني كما اشتئى عبرى من الفتيات ، وإن امتاعنى
عليه قد راده حرصاً على وتعلقاً بي . ولست أكلد نفسي فكثيراً
ما سألتها . أنرى شهوته قد استحال إن حب ؟ أما الآن فأنا مستيقنة
أنه لا يحبني ، بل لم يحبني قط ، وأنه لا يشئني ، ولعله يريدني ،
وإنما يريد أن يقهر في عموماً متمرداً وحصياً عبداً ، فلا يقين الأس
بالأس ، ولا يقين العناد بالعناد .

وما كان أيسر الحرب لو أنى رعت في الحرب أو فكرت فيه ،

لكني كنت أريد أن أترك الدار جبهة لا سرّاً ، وعلى علم منه لا على جهل . ومن يندري ! لعل لم أكن أحب أن أترك الدار . وإن كان هذا الحاضر لم يمرض لي ظاهراً جلياً . وهو يعود مع المساء ، وما أكثر ما يعود الآن مع المساء ، وينفق ليله كله في الدار لا يجر ولا يلقى أصحابه . ومن يندري ! بم كان أصحابه يعللون انقطاعه عن السمر وإثارة للمرلة . ولكنه يعود اليوم إلى الدار هادئاً ظاهر الرضا ، ويلقاني كما انصرف غنى مبتسماً في كآبة ، وهو يسألني : أما تزالين هنا وقد فارقتك حل ألا ألقاك إذا عدت ؟ !

- أجل ! فارتقي على ألا تلقائي ، ولكنك أمرت خادمك ألا يغفل بيني وبين الطريق .

- ومن زعم بك هذا ؟ لقد كذبتك الخادم ، وما أرى إلا أنه خريص على بغائك ، كاره لمرافقتك . ومن يندري ! لعلك أنت لا تكرهين البقاء معه والاتصال به فهو الذي سماك لي ، وهو الذي أسأني بمكالمك ، وهو الذي جاء بك إلى هذه الدار . إن إدراكاً لحقي ، لقد خدعني هذا البستاني ، ولقا انحد داري مسرحاً للهدوء وهواه . فأنت إدراكاً لا تعرضين عني ولا تمنعين عني إثارة للشرف واستنقاء للعفاف ، فقد ذهب الشرف مد من بعيد وصاع العفاف منذ أقبلت أو قبل أن تغفل على هذه الدار . وفي سبيل من ذهب الشرف ؟ وفي سبيل من صاع العفاف ؟ في سبيل هذا البستاني الذي تهوينه ، وما أشد في أنه يهواك

وكان هادئاً مطمئناً حين بدأ هذا الحديث ، حتى لم أكن أشك أنه كان صادقاً . كنتأ بتمسك الوصية إلى استنشاف ما يبسا من الخصام . ولكنه لم يكن يمسني في حديثه حتى أحد هلوؤه بمعارفه شيئاً شيئاً . ولم يكن ينهي إلى عاقبته حتى كان غصاً كنه . وشراً مستطيراً يتمثل بإنساناً يتكلم ويتحرك ، ذاهماً جانياً متيناً لبطش لا يكاد يمنع عنه

إلا في جهد شديد .

على أنني لقيت عنقه هذا وسطحه كما تعودت أن ألقى كل ما قدم إلى من ألوان لعنف واللين ، ومن ضروب السطح والرب ، ثالثة مطبقة . وقتت له في هبوبه لا بأس عليك ! خل بي بين الطريق ، ثم تيسر بعد ذلك أن أجمعني بالبستاني حاصفة ، أو يصلي به ليلة من حليت بيني وبين الطريق لأحمد أول قطار . وإلا أن أشتى على مولاي وأكرمته مالا يتكف السادة المحلم لعرضت عليه أن يصغي في قطار أو يرسلني إلى أي مدينة شاء . فإن لا أدعي ، لا أن أعيش ، في حيث آمن على شرف هذا الذي لم يذهب ، ومن عاقبي ما لدى لم يضع وإن ظن سيدي في الطنون .

دل في عبط يشه الرصد في محمية شبه الجدة . ما راسي كورين السادة وخادم . فقد عصمت مد حين أن ليس بيننا سيادة ولا حكمة ، وإنما بيننا ما هو شر من ذلك وأبعد أثراً .

قلت . وما داك ؟ قال : هو هذا . . . ثم اندفع إلى هاجماً كأنه أثبت يريد أن يزدرد مريسته ازبداداً ، ولكن المراه لا تطلب إلا إذا أحت . ولا تقهر إلا إذا أرادت ، ولا تفسد إلا إذا رعت في الإدمان . ومن أجل ذلك ارتدت عني كما هجم على ، واستوفت الخصام بيها كما كان من قبل عيباً لبياً ، وعلتوباً مستقيماً ، وفيه ما فيه من هذه الأتوب التي بعد حياة العاشقين وتربيتها في وقت واحد .

وتتصل الحياة على هذا النحو ، لا أجد لنفسي منها مخرجاً ولا يجد لنفسه منها مخرجاً ، وإنما دُفع كل منا إلى صاحبه دفعا ، ورداً كل واحد ما من صاحبه ردّاً ، لا يستطيع أن يخرجني من داره ، ولو قد أراد ذلك لكرهت أن أخرج من هذه الدار ، ولا أستطيع أن أطارقه جبهة ولا خفية ، ولو قد فعلت لطلبتني حيث أكون من الأرض .

فليس عدلى شك الآن في أن سبدي لا يشئى ولا يتنى أن يظهر على ويستمر على خصم عبيد ، وإنما هو الحب ، هو الحب الذى يطعم في كل شيء ويرضى بأهل شيء ، بل يرضى بلا شيء ، بل هو سعيد كل السعادة ما وثق بأن يتأ واحداً بحويه مع من يحب ويهوى . هو الحب ما في ذلك شك ، لكن الشك المؤلم المصى إنما يتصل بهذا القلب الذى يضطرب بين جنى أنا ، فما خطه ؟ أمعن هو كما كان مبعضاً من قل ؟ أراعى هو في الانتقام كما كان راعياً من قل ؟ أحافظ هو لعهد هذه الأخت التى صرعت في ذلك الفضاء المريض ، ولعهد الأشباح الحمراء التى تقبى معها على هذا اليسوع الأحمر ، والتى قد طال مقامها معها حول هذا اليسوع ، وانقطعت ريارتها لهذه الدار فلم تلم بها منذ حين ؟

نعم ! الشك في هذا القلب الذى يضطرب بين جنى بعد أن استيقن أن هذا الشاب يحبى ولا يستطيع غنى ملوا . ما خطب هذا القلب ؟ أم هو أم غير مكثرت ؟ فإن تكن الأولى فهم المقاومة ، وفيه العذاب ، وفيه تعذيب الحب ؟ وإن تكن الثانية فهم البقاء في هذه الدار ، وفيه الصبر على هذه الحياة التى لا تطاق ؟

كلا ! كلا ! فكرى يا آمنة . ماذا أقول ؟ فكرى يا سعاد . . .
فقد عى اسم آمنة منذ دخلت هذه الدار .

فكرى يا سعاد . فقد آن لك أن تفكرى ، واعزى أمرك فقد آن لك أن ترميه ، أقيمى كما تقبى العاشقة أو ارتحلى كما ترتحل القالية ، فأما هذه الحياة المسقة فليس لأحد فيها حبر وليس لأحد فيها عاء ، ولم يبق لك إلى احتمالها سبيل !

ودد ذكرت سعاد ، وما كنت في حاجة إلى مذكر بعد الملامى قلبى وتحبب هذه الحياة التى تحبها امتلاء ، مرحاً بها مرحاً ، حتى أصبحت حزناً مهما أو أصبحت جراًيم من رضى أصبح من أعسر الأشياء وأشقها أن تفكر الفتاة في هذه الحياة تفكراً هادئاً محمداً لا يباثر هذه العواطف العنيفة الحدة التى تتصور مرة كأنها العور الذى لا يعور بعده ، وتتصور مرة أخرى كأنها الإقبال الذى لا إقبال بعده ، وهى في الحالى شيء واحد تختلف عليه الصور والأشكال دون أن يتغير جوهره الذى هو الحب .

نعم ! لقد أصبحت سعاد عاجزة كل العجز عن أن تحلو إلى صبا ساعة من سهار أو ساعة من ليل ، بل أصبحت عاجزة كل العجز عن أن تحلو إلى صبا في بقعة أو يوم ، إنما هى مستصعبة هذا الشاب إن حصر ، ومستصعبة هذا الشاب إن عاب . لا تهم بالخلوة إلى صبرها حتى تعد صورته ماثلة فيه ، ولا تمد عينا إلا رأت شخصه ، ولا تمد أذنها إلا سمعت صوته . قد أخذ الحياة عليها من جميع أقطارها ، وقد داد عنها كل شيء وكل إسان ، وداد عنها حتى أحبها تلك العزيرة وأشباحتها تلك الحمراء . وانتهى الأمر بها كما انتهى الأمر بهذا الشاب نفسه إلى علة تشبه الجنون . لقد صرفت إليه عن كل شيء ، وصرفت إليها عن كل شيء .

ولم يبق بين هذين الخصمين المتعدين صراع أو تفكير في الصراع ، وإنما هو الإدعان الذى لا ثورة بعده والامتسلام الذى لا رجوع فيه . ولكن الكبرياء ما زالت ميطرة على سعاد ، تصارع الحب فيها

تصرعه ، وتغالب العشق فيها فتعلمه ، وما أكثر ما سمعت الفتاة
إلى الاستسلام ، حتى إذا تكادت تنهى منه إلى عيبه . وحتى إذا
بلغت حافة الحوة وكادت تتردى فيها تمثلت لها الكبرياء قوية عيبه .
ونصبت أمام عينيها مرآة تنظر فيها فتري صورة آمة الآية عريضة .
وترى صورة سعاد الضعيفة المهالكة ، فتند وراءها حطوة أو حطوات .
وتوحد الإذعان والإلقاء باليد إلى أجل يقصر أو يطول .
وقد تغيرت سيرة سيدى أيضاً ؛ فهو يحب يلنى من الحب عاء
وبلاء ، ويحد من آلامه مثل ما أجده . ولكن كبرياءه قد ردت إليه هو
أبصاراً فأصبح يتمنى في غير إلحاح ، ويأمل في غير إلحاف ، كأنما
أحسن في حبه شيئاً من حياء فآثر القصد والاعتدال ، وكأنما أحسن
الإخفاق المتصل فآثر الحرمان في شيء من العزة على ذلك الإلحاح
الذى لم يكن يعقبه إلا هزيمة وخطلان .

ولكنه يقبل على ذات مساء وعلى وجهه ابتسامة فيها شيء من الرضا .
وفيها كثير من الحزن ، وفيها شك يتردد بين الرضا والآخر . يقبل على
ذات مساء لا نائراً ولا مستسلماً ، ويقول لى في صوت لا حدة فيه . لقد
آن لك أن تسريجى ، وآن لى أن أستريح ! فأطر إليه نظرة التى لم
تعمهم عنه التى تعودت أن تسمع كثيراً فتعمهم أو لا تعمهم دون أن تحمل
بما يستقر في نفسها أو يعزب عنها مما تسمع ، ولكنه يعيد على حديثه
فأسأله عما يريد ، فيقول : ستغرق لآنى نقلت إلى القاهرة .

وتفزع من نفسى هذه الجملة موقع الصاعقة ، وإذا أنا داهلة
لا أجيب ولا أتكلف حتى إحصاء الدهول ، وإذا أنا أحد شيئاً من
الدوار يكاد يبلغ لى الإغماء لولا أن أتمالك ، وإذا دموع تنهمر في
صمت متصل . وإذا الفتى يبدو منى فلا أرتد عنه ، وإذا هو يصح
يديه على كفى فلا أمتنع عليه ، وإنما أنا معرقة في لصمت ودموعى

ماصية في الإهمار ، والننى قائم بمكانه منى في هلهو لم أعهد ، ينظر
إلى صامتاً دهشاً ، ثم بنأى عنى قليلاً وهو يقول في صوت شاحب :
ماذا أرى ! إنك لتكرهين فراقى حقاً !

ثم يعود إلى صمته ، وأمضى أنا في صمى ، وتمضى دموعى
في الإهمار . وما أدرى أطال بيننا هذا الموقف أم قصر ، ولكنى أسمع
يدعونى في صوت قد فارقه شحوبه وعاد ممكناً مشرقاً كما عرفته ،
وأرفع رأسى وأحاول النظر إليه من وراء هذه الدموع المنسكبة فأرى
وجهاً مشرقاً أشد الإشراف قد امتصرت فيه أمارات الحزم والهلهو ،
وإذا هو يقول لى : أما والأمر يتنا على ما أرى فلن تفرق . مستصحينى
إلى القاهرة ، ولن يتالك منى إلا ما تحين . فلم فامضى في شؤونك
كما تعودت أن تفعل ، هيق من أمرى السفر ، فلن تقيم هنا
إلا أياماً .

ثم ينصرف منى كما أقبل على هادئاً وزين الخطا . وقد أنكرت من
نفسى كل شيء ، وأهم أن ألوم نفسى على هذا الضعف الذى لم
أستطع إحصاءه ، ولكنى لا أجده من نفسى قوة على اللوم ، وإذا أنا
راضية عن هذه الحال الجديدة راضياً عميقاً قد مازج نفسى وانخطط
بدي ، ولكنه في الوقت نفسه راضياً حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر ، وإنما
هى حياة الخادم التى اطمانت إلى ما يلزمها من الأحداث ، وضمت في
حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً ، وإنما هى مستلعة تذهب وتجيء ،
وتأتى من الأمر ما تأتى ، وتدع من الأمر ما تدع ، لأنها لا تستطيع
أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا ، ولأنها تجد في هذا
أنفسى ما كانت تنتظر من السعادة .

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إلى منذ ذلك الوقت نظرات
برئت من الطمع والأمل ، وقنعت منى بما يقنع به اليد الننى من الخادم

النقية ، فلا إثم بيتنا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه ، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استوفت بيتنا كأننا لم نلتصق قبل ذلك الوقت ، وكأن أحدنا لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي ألبأتني فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة .

وإني لأدعو أني حين أخلو إلى نفسي في النهار وحين أخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرق ، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفتها في بيت العمدة واجدة هائمة ، ولا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر . تطيف بها ظلالها الحمراء .

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور ، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتتلفح لها بعض الزفرات وقد تهمر لها بعض العبرات ، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق ، وإذا أنا أعود إلى حياتي المصيبة الماددة ، الحزينة في غير تكلف لحزن أو سرور . وأنتقل مع سيدي إلى القاهرة وأقيم معه في دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار ، ولا أجد من أبويه إلا برّاً وعظماً ، وإلا رفقاً وحناناً . فأما هو فقد جعل ينظر إلى كل ما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم ، قد اصطفااني لنفسه ، واختصني بوده ، وجعل يشركني في كثير من أمره .

يا لله ! إني لأحس شهاً بين هذه الحياة التي أحياناها مع هذا الشاب في دار أبويه النخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التي كنت أحياناها مع خديجة في بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم . لقد عاد الأمر بيني وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بيني وبين خديجة من التقاء والظهر . لم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء !

ولكنها صداقة غريبة هذه التي تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف

الغني ، وهذه الخادم البائسة التي طالما طمعت فيها نفسه الطامعة ، وأغرته بها عواطفه الجائعة ، والتي طالما اتخذتها غرضاً لأهوائه الآثمة ، وابتنى عندها من اللهو والمجون ما يبتغيه أمثاله من الشباب المترفين عند أمثاله من البائسات الغافلات ، فلما لم يظفر منها بشيء حاصرها كما تحاصر القلعة ، وحاربها كما يحارب العدو ، فلم يستطع أن يقهرها ، ولم يستطع أن يقهره . وأقاما معاً في شيء من المواعدة لا يستطيع عنها سلواً ، ولا يستطيع عنه انصرافاً ، لا يشير إليها من آماله وطماعه بقليل أو كثير ، ولا تلقاه هي من مقاومتها وامتناعها بقليل أو كثير لأنها لم تعد في حاجة إلى المقاومة أو الامتناع .

أأكذب نفسي أم أصدقها ؟ أأصارعها بالحق أم أموه عليها الأمر ؟ لقد رخصت حياتنا الجديدة واطمأن إليها قلبي كل الاطمئنان ، واغبطت بها نفسي أشد الاغبط ، وارتاح إليها ضميري هذا المتعب المذهب الذي كان في حاجة إلى أن يرتاح . ولكن أظن قلبي مطمئناً ونفسي مطمئنة وضميري مرتاحاً بعد أن مضت علينا الأسابيع والشهور في مدينة القاهرة قريبين بعيدين مؤتلفين مختلفين ؟ ألم أشعر شعوراً غامضاً بأن هذه الهدنة قد طالت وبأن هذه المواعدة قد اتصلت أكثر مما كان ينبغي أن تتصل ؟ ألم أجد في أعماق ضميري شوقاً إلى تلك الحرب وجنوحاً إلى ذلك الخصام ؟ ألم أحس في دخيلة نفسي أن حياة هذا الشاب قد يكون لوناً من الصدق وأن احتشامه قد يكون فناً من الإعراس ؟ بلى ! وجدت هذا كله وأنكرته من نفسي أشد الإنكار ولها فيه أعنف اللوم ، وما أشك في أنه وجد من نفسه مثل ما كنت أجد ، ولأم نفسه في مثل ما كنت ألوم نفسي فيه .

وقد زاد هذا الحمل ثقلاً على نفسه وعلى نفسي أنه صار منذ انتقل إلى القاهرة سيرته تلك التي ألفها في الأيام الأخيرة من حياته في الأقاليم .

فكان يغدو إلى عمله مصباحاً ويروح إلى دار أبويه حين يتقدم النهار فلا يكاد يخرج منها إلا إذا كان الغد . ومع ذلك فأمثاله من الشباب لا يلبسون بدورهم إلا ليخرجوا منها ، إنما دورهم فتادق يطعمون فيها ويأوون إليها آخر الليل . وفي القاهرة مما يقفن الشباب ويفريهم شيء كثير علماً سمعت أحاديثه قبل أن أبلغ القاهرة وبعد أن أقمت فيها . فما بال هذا الشاب لا تبلغه فتنة ولا يناله إغراء ؟ لقد رضى أبواه أول الأمر عن هذه الحياة المستقيمة كل الرضا ، وابتهاجا بمحضرا ابنيهما كل الابتهاج ، ولكنهما رجعا آخر الأمر أن الفتى قد أسرف على نفسه في لزوم الدار والعكوف على القراءة والانقطاع عن الأندية وما يكون فيها من لقاء الأصفياء والتعرف إلى الناس . وكثيراً ما رغبته أمه في الخروج فلم يستجب لهذا الرغبة ، وكثيراً ما أغراء أبوه بملاعب التمثيل ومجالس الموسيقى وزيارة هذا البيت أو ذاك من بيوت الأصفياء فلم يستمع لهذا الإغراء ، إنما هو الغدو على العمل والروح إلى الدار ، والأوقات تنفقها مع أبويه ، ثم الانحياز إلى غرفته والانقطاع إلى كعبه يصكف عليها حتى يتقدم الليل .

وكان في أثناء ذلك ربما دعاني إلى غرفته وأخذ يتحدث إلى ويسمع مني ، وكانت المدينة وشؤون أهلها موضوع حديثنا في كثير من الأحيان ، كما كانت القاهرة وشؤونها موضوع حديثنا أحياناً أخرى .

كان يتحدث أو يسمع جالساً إلى مكتبه ، وكنت أتحدث أو أسمع واقفاً غير بعيدة من مكتبه . وما أكثر ما دعاني إلى الجلوس وما أشد ما كنت أعني الجلوس ! ولكنني كنت أعترض باسمه ، فما ينبغي لمثل أن تجلس إلى مثله وإنما حسب مثل من مثله الوقوف بين يديه والتحدث إليه والاستماع له ، وهذا كثير .

لم تكن غريبة هذه الصداقة بيني وبين هذا الشاب على ما كان

بيننا من الاختلاف والاختلاف ؟ أكانت صداقة خالصة أم كان وراءها أكثر من الود الذي يكون بين الأصفياء ؟ أما أنا فقد كنت أجد وراء هذه الصداقة حياً ثائراً أكسبه على ما كان يكلفني كنهانه من الجهد ويحملني من المشقة والعناء . وأما هو فقد كتم أمره أسابيع وشهوراً حتى خلعني أو كاد يخدعني عن نفسه ، ولكنه ألقى الثقاب ذات مساء فقهر من أمرنا كل شيء ، اللقاء في غير جهد وفي غير تكلف ، لم يضطرب له صوته ، ولم يظهر على وجهه أثر العواطف المضطربة أو القلب الذي تضطرم فيه نار الحب . إنما تحدث إلى في هذا الأمر كما كان يتحدث إلى في أمر المدينة وفي أمر القاهرة بصوت لا ارتفاع فيه ولا انخفاض ولا احتجاج فيه ولا تنوء !

قال : ألا ترين أن الأمر يتناقد أن له أن ينهي إلى غايته ويبلغ مداه ؟ قلت : وما ذاك ؟ قال : هذا الحب الذي اختصمنا فيه وقتاً طويلاً وسكننا عنه وقتاً طويلاً ، ولكنه لم يسكت عنا ، فما أظنه قد أمهلك يوماً كما أنه لم يمهاني ساعة . أما ينبغي أن تنتهي هذه الحياة الفاضلة إلى ما يجب لها من الصراحة والوضوح ؟ وقد سمعت منه ولكنني لم أرد عليه جواباً .

فلما طال عليه صمتي استأنف حديثه في صوت لا يزال سواه ، فقال : إنك تفهمين مني اليوم ما أريد ، كما فهمت عني من قبل ما كنت أريد . قلت مبتسمة : بل إنني لم أفهم عنك شيئاً . قال ضاحكاً : بل تفهمين أني كنت أريدك على الإنم ، وإلى الآن إنما أريدك على الزواج .

واحتججت إلى أن أعتد على كرمي كان مني غير بعيد ، فإن فكرة الزواج لم تخطر لي قط ، وما كان ينبغي أن تخطر لي ، فقد أقنعت على كثير من خطير الأمر وتصورت في نفسي كثيراً من جليل

العمل ، ولكنني احتفظت دائماً بعقلي ولم يخرجني الحب كما لم يخرجني
اليخس ، ولم يخرجني الأمل كما لم يخرجني اليأس ، عن طوري في لحظة من
اللحظات . لذلك أجبته صادقة بأن هذا أمر لا ينبغي العبث فيه .
قال وهو يضحك : فإنك تظنين أني أعبت ، وتقلرين ما بينك
ومني من الفرق الاجتماعي متى تزوج السيد الغني المترف من خادمه
الشقية الفقيرة البائسة ! أليس هذا هو ما تقلرين ؟ فأرجي نفسك
إذن من كل هذه الخواطر ، فقد رأيت منذ موقفنا ذاك في المدينة أني
لست سيدياً كغيري من السادة ، وقد رأيت أنا منذ عرفتك أنك لست
خادماً كغيرك من الخدم . لقد دهشت حين رأيته تنتظريني إلى آخر
الليل على غير ما تعودت من الفتيات اللاتي سبقتك إلى خدمتي ،
ولكني لم أكن أقدر أنك مستيرين في نفسي ألواناً أخرى من الدهش .
ثم أطرق صامتاً فأطال الإطراق والصمت ، وليت مائلة ذاهلة
لا أقول شيئاً ، وأكاد لا أعي شيئاً ، ولكنه رفع رأسه ، وقال في صوت
هادئ حزين : أتقبلين ؟ قلت في صوت ليس أقل من صوته هادئاً
ولا حزناً : فإن سيدي يعلم أن ليس إلى هذا من سبيل . قال : تفكرين
في أبي ؟ فإنني قد فكرت فيهما قبلك وقد حزمت أمري ، وما أشك
في أنهما لن يمتنعا علي ، ولو قد فعلا لعرفت كيف أمتنع عليهما ،
ولكنهما لن يفعلا ، فهل تقبلين ؟ قلت : ليس إلى ذلك من سبيل .
قال : فمن حق عليك أن أفهم هذا الامتناع ، إنك لتعلمين أن فراقاً
بيننا مستحيل ، وإنني لأعلم كما تعلمين أن ليس لقلبي رضا إلا في
الزواج . قلت : فقد قضى على قلبي ألا يرضيا . قال : ومن ذا الذي
قضى عليهما هذا العذاب المتصل ؟ وهمت أن أجيب ولكن صوتي
يحبس ، ودمعي ينطلق ، وإنني لأراني أهم بالانصراف ، وإنني لأراه
قد نهض من مجلسه متاثلاً وسعى إلى متباطناً حتى ردت في هدوء ودعة ،

ثم عاد إلى مجلسه وقال : أنرى إلى كيف أملك نفسي ! ألا تفكرين
في تلك الثورة الجامعة التي شقيت بها وقتاً طويلاً .

أنبشني من ذا الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ؟ قلت : أنت
الذي قضى علينا هذا العذاب المقيم ، وأنا التي قضت علينا هذا
العذاب المقيم . كلانا قضى على صاحبه ما نحن فيه من شر ونكر ،
وكلانا أتاح لصاحبه ما نحن فيه من هذه المواقعة المصادفة التي لا ينبغي
أن نطمح في خير منها فليس في الحياة خير منها بالقياس إليك ولا
بالقياس إلى . قال : فإن حديثك لم يزد إلا غموضاً . قلت : فخير
لنا أن نقبله على ما فيه من غموض . قال ، وقد ظهر أنه يبذل جهداً
ليحفظ بهلوه : فإنني أقسم لك أني لم أعد أستطيع صبراً على هذه
الحياة . قلت : وأنا أيضاً لا أستطيع صبراً على هذه الحياة ، ولكن
ما الذي نستطيع أن نفعل وقد سبق القضاء بما لم نحب . قال : أي
قضاء ؟ ألم يأن لك أن تنصحي ، ألم يأن لي أن أفهم ، ألم يأن لهذه
الظلمة أن تتجاف ؟ قلت : أحريص أنت على ذلك ؟ إنني لأخشى
إن انجابت عنا هذه الظلمة وغمرنا الضوء أن يكره كل واحد منا النظر
في وجه صاحبه . قال ، وقد غلبه العنف ، فارتفع صوته قليلاً واضطربت
يده اضطراباً خفيفاً : بل أنا أريد أن أفهم مهما تكن العاقبة . قلت :
فأذن لي إذا بالجلوس ، ولم أنتظر إذنه ، وإنما جلست على هذا الكرسي
الذي كنت أعتمد عليه ، وألقيت عليه قصتي في صوت هادئ مطرد
لا يبله السمع ولا يظهر فيه الحزن ، ولا يتم عن قليل أو كثير من الاضطراب
إنما ألقيت عليه قصتي كأنني أحدث عن شخص غريب إلى شخص
غريب .

وما أدرى أطلال الوقت الذي ألقيت فيه قصتي أم قصر ، ولكنني
أعلم أني سمعتني أقول : أفهمت الآن ؟ أنرى إلى هذا الضوء الذي

يغمرنا ؟ أستطيع أن تنظر إلى ١٢ وقد انتظرت جوابه لحظة غير قصيرة ، ولكني سمعته كأنما كان يتحدث إلى من مكان بعيد جداً ، سمعته يقول : نعم ! أستطيع أن أنظر إليك ، ولن أستطيع أن أنظر إلا إليك ، وأنت أنطيقين أن تنظري إلى ؟ أما زلت تضررين الانتقام ؟ ولم أجب إلا بما تجيب به المرأة المغلوبة التي انكسرت نفسها وذاب قلبها ، فهو يسيل من عيناها دموعاً . ثم أستمع بعد وقت لا أدرى أكان طويلاً أم قصيراً يقول لي : لقد كان من الممكن أن نفترق قبل أن يغمرنا هذا الضوء ، فأما الآن فقد أصبح افتراقنا شيئاً لا سبيل إليه . أليس من العجب أن يكون هذا الضوء الذي أخذ يغمرنا شراً من الظلمة التي خرجنا منها ؟ إن أحدهما لن يستطيع أن يهتدي في هذا الضوء إلا إذا قاده صاحبه . إن العبء لأثقل من أن تحمله وحده ، وإن العبء لأثقل من أن أحمله وحدي ، فلنحتمل شقاءنا معاً حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

ثم انقطع الحديث بيننا فلم يقل شيئاً ولم أقل شيئاً ، وأطبق على الغرفة صمت هائل رهيب ! غرقنا فيه بقلبين كما يغرق النائم في نوم برئ من الأحلام .

ولكن صوتك أيها الطائر العزيز يبلغني فينتزعني انتزاعاً من هذا الصمت العميق ، فأثب وجلة مذعورة ، ويثب هو وجلاً مذعوراً ، ثم لا نلبث أن يثوب إلينا الأمن ويرد إلينا الهدوء ، فأما أنا فتنحدر على خدي دمعان حارّتان . وأما هو فيقول وقد اعتمد يديه على المائدة ، دعاء الكروان ! أترينه كان يرجع صوته هذا الرجيع حين صرعت هنادي في ذلك الفضاء العريض ! !

القاهرة ، سبتمبر ١٩٣٤